مذكرات فيلبي

في العراق والجزيرة العربية

١٩١٥ ـ ١٩٢١م

الملك عبدالعزيز آل سعود

الشريف الحسين بن علي

الملك فيصل الأول

نوري السعيد

طالب باشا النقيب

بيرسي كوكس

الكولونيل ويلسن

المس بيل

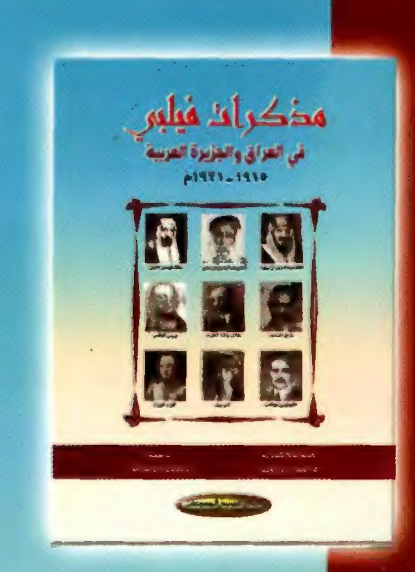
اللورد كورزن

كتبه بالانكليزية
ه. سنت جون فيلبي

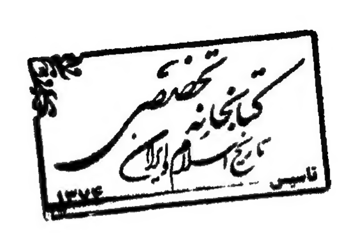
ترجمة
جعفر الخياط




تاریخ
عراق
۸
۳
۲



مذكرات فيلبي
في العراق والجزيرة العربية
١٩١٥ـ١٩٢١م



مذكرات فيلبي

في العراق والجزيرة العربية

١٩١٥ - ١٩٢١م

مذكرات فيلبي

في العراق والجزيرة العربية

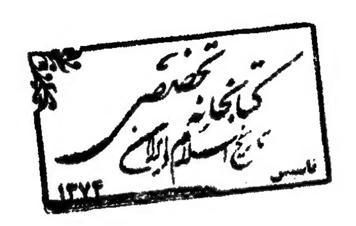
١٩١٥ - ١٩٢١م

كتبه بالإنكليزية

هـ سنت جون فيلبي

ترجمة

جعفر الخياط



الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٨هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان

ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961

هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

---

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني



الحاج عبدالله فيلبي

مقدمة المترجم

جاء المستر أيتش. سنت جون فيلبي[١] لأول مرة إلى العراق في تشرين الثاني ١٩١٥ عندما كانت الحملة البريطانية التي احتلت البصرة تتقدم شمالاً في طريقها إلى احتلال بغداد. وقد كانت «الدائرة السياسية»، برئاسة السر **پيرسي كوكس**، التي رافقت الحملة بها حاجة ماسة إلى رجال ذوي خبرة إدارية ومواهب لغوية ليضطلعوا بواجبات الإدارة المدنية التي كانت تتسع شيئاً فشيئاً كلما تقدم الجيش وأصبح افتتاحه لبغداد شيئاً متوقعاً. وكان المستر فيلبي آخر من وصل من الهند من مثل أولئك الرجال الذين جردهم الاستعمار لحكم هذه البلاد، كما كان من القلائل الذين لم يكونوا من رجال السلك العسكري. وكان وصوله يوم ٢٠ تشرين الثاني عندما كان الجنرال طاونزند ينتظر بالقرب من «طاق كسرى» اندحاره الشنيع، على يد خليل باشا والي بغداد وقائد الجيش التركي في تلك الجبهة، وتراجعه السريع إلى الكوت التي تحاصر فيها مع جيشه مدة تقارب الخمسة أشهر.

وقد عُيّن في الشعبة المالية (في البصرة) التي أسسها كوكس في «الدائرة السياسية» بعنوان «مساعد مالي لرئيس الحكام السياسيين».

---

(١) H. St. John Philby.

فاشتغل في تأسيس الدائرة المالية ووضعها على الأسس التي سارت عليها مدة من الزمن بعد ذلك. وفي هذه الدائرة اتصل لأول مرة بالكولونيل ويلسن، الذي أصبح بعد ذلك وكيل الحاكم الملكي العام، وهناك وقع اختلاف بينهما فكان ذلك أساساً للاختلافات الكثيرة التي وقعت بعد ذلك فأدت إلى أن يترك المستر فيلبي العراق مدة من الزمن ليعود إليه في الوقت الذي نُحّي فيه ويلسن عن العراق، بعد الثورة العراقية، وعاد إليه السير كوكس لتشكيل الحكومة الموقتة وتأسيس كيان الدولة العراقية الحالي. وفي خلال اشتغاله في البصرة بدأ بتعلم العربية بعد أن كانت له معرفة طفيفة بمبادئها العامة. كما اشتغل موقتاً بإدارة جريدة «الأوقاف البصرية» التي كانت تصدرها بالعربية والإنكليزية، السلطات البريطانية هناك. وفي خلال مدة اشتغاله في الشؤون المالية وحدوث أزمات للنقد المتداول جرت مفاوضة مع «المصرف الشرقي» أدت إلى تأسيس فرع له في البصرة لأول مرة، حيث أصبح مصرفاً للادارة المدنية. وكان هذا أول عهد المصرف المذكور بالاشتغال في العراق، وقد بقي مصرفاً للحكومة العراقية بعد ذلك إلى حين تأسيس مصرف الرافدين خلال الحرب الأخيرة. كما تعرف في أواخر أيامه في البصرة بالمس بيل التي كانت قد وصلت للاشتغال في دائرة الاستخبارات بمعية كامبيل - طومسن ثم انتقلت إلى الدائرة السياسية بعد ذلك. وكان مجيئها من مصر حيث كانت تشتغل في معية غلبرت كلايتون والدكتور دي. جي. هوغارث في شعبة الاستخبارات التي أصبحت تسمى أخيراً «المكتب العربي».

وبعد مدة من الزمن وقعت خلالها حوادث كثيرة أهمها استسلام طاونزند في الكوت وتعيين الجنرال مود قائداً عامًّا للجيوش الجديدة التي تحتم عليها استئناف الحملة إلى بغداد بعد ذلك، ونشوب الثورة العربية وتألق نجم لورنس فيها وغير ذلك. بعد هذا كله اضطر المستر دوبس أن يتخلى عن وظيفته كمعتمد للواردات فعُين فيلبي في مكانه.

وبعد تطورات أخرى في الوضع العسكري وفي وضع الإدارة المدنية خيّره السير بيرسي كوكس بين أن يعيّن «وكيلاً سياسيًّا» في الكويت أو «حاكماً سياسيًّا» في العمارة فاختار الحاكمية السياسية في العمارة من غير تحمس. وكانت من أهم أعماله في منطقة العمارة توفقه لإقناع غضبان البنية، شيخ بني لام المعروف، في تجهيز الأغنام التي كان يحتاجها الجيش البريطاني المتقدم إلى بغداد، بعد أن جرّبه قبله ليچمن المشهور.

وقد ملّ الاشتغال في العمارة بعد أن قضى فيها مدة تقارب السنة احتلت خلالها بغداد وانتقل كوكس مع ادارته المدنية إليها فطلب الانتقال إلى أية وظيفة في بغداد، فعرض عليه الاشتغال بإصدار جريدة «العرب» التي كانت الإدارة المدنية تزمع إصدارها. فوافق على ذلك، وتوجه إلى بغداد فوصلها في ١٧ مايس ١٩١٧.

إلا أنه وجد، بعد وصوله بغداد، أن دائرة السر بيرسي كوكس التي كانت تشغل سكرتاريتها المس غيرترود بيل تنوء بأشغالها الكثيرة المتراكمة، فصُرف النظر عن اشتغاله بإصدار جريدة «العرب» وأُلحق بالدائرة السياسية. وهناك اشتغل مع المس بيل في تنظيم شؤون الدائرة وتصفية أشغالها المتراكمة بالشكل الذي أرضى كوكس كما يقول هو. ومما يؤثر ذِكره هنا أن المستر فيلبي خلال اشتغاله هنا اتصل بحكم وظيفته بالكثير من الموظفين البريطانيين، وقد اصطدم خلال اشتغاله هذا **بالكولونيل ليچمن** الحاكم السياسي المعروف الذي قتله الشيخ ضاري في خان النقطة فيما يقرب من الفلوجة خلال الثورة العراقية التي وقعت بعد ذلك. وقد اصطدمت بليچمن أيضاً المس بيل التي كانت تكرهه وكثيراً ما كانا يتشادّان فيما بينهما بفظاظة. وكان سبب ذلك استهجان فيلبي والمس بيل للخطة التي عرضها ليچمن على كوكس في القبض على محمد علي كمونه وفخري كمونه في كربلا اللذين ثبت للسلطات البريطانية يومذاك

إيصالهما الطعام والأرزاق للجيش التركي. وفي خلال اشتغاله هنا عادت فكرة إصدار جريدة «العرب» بالنظر للحاجة التي أظهرت نفسها للدعاية. فأصبح فيلبي رئيساً للتحرير فيها بالإضافة إلى وظيفته الأصلية، كما دبّر الإتيان بالأب انستاس ماري الكرملي لتمشيتها كمساعد رئيس تحرير. وهو يقول أن الأب انستاس كان يقوم بجميع الأعمال فيها بإشرافه هو (فيلبي).

ويقول المستر فيلبي أنه كان ملتذاً في عمله هنا لأنه كان «في وسط مجرى التطورات الحيوية التي كانت تجري خلال أيام بغداد الأولي هذه» على حد قوله. ومن أهم هذه التطورات، إحياء الفكرة التي كانت ترمي إلى ضرورة الاتصال بابن سعود، الذي كانت علاقاته بالشريف الحسين تتطور من سيء إلى أسوأ، فتصبح عداءً واضحاً. ولأجل حل هذا المشكل اقترحت الجهات المختصة، بعد أن جرت مخابرات متطاولة بين الدوائر البريطانية ذات الشأن في القاهرة وبغداد، أن يرسل وفد بريطاني من القاهرة وآخر من بغداد إلى الرياض لبحث الوضع بأجمعه مع ابن سعود. وكانت الحاجة ماسة إلى ذلك، خاصة بعد أن لمع نجم الشريف الحسين وتوفقت جيوش الثورة العربية لطرد الأتراك من الحجاز فوصلت إلى أبواب دمشق، في الوقت الذي كان فيه ابن سعود موجوداً في وسط الجزيرة يتخذ موقفاً يسيء إلى الشريف الحسين فيه. وكان ابن السعود في نهاية ١٩١٦ قد زار البصرة فاستقبل استقبال العاهل الحاكم فرأى بأم عينه جيوش بريطانية وقوتها العسكرية. فنُدب أخيراً لهذه المهمة الكولونيل آر. أي. هاملتن «الوكيل السياسي» في الكويت يومذاك.

وكان الخلاف، في الوقت نفسه، يزداد استحكاماً بين المستر فيلبي «المعتمد الأمين» لكوكس في بغداد، كما يسمّي نفسه، والكولونيل ويلسن وكيل رئيس الحكام السياسيين في البصرة. وكان سبب ذلك اختلاف الاثنين في الشخصية والرأي السياسي. حيث كان ويلسن يحمل

أفكاراً وآراء استعمارية مزوقة ترمي إلى جعل العراق تابعاً هنديًا ودرة من درر التاج البريطاني بصرف النظر عن الوعود والتصريحات التي صدرت من بريطانية العظمة في مختلف المناسبات بشأن مستقبل البلاد. فأدى ذلك إلى عرقلة أعمال ويلسن وتوقف خططه عن السير في البصرة لأن فيلبي كان إلى جانب كوكس مع المس بيل في بغداد يشير أن عليه بما لا يتفق وآراء ويلسن. حتى طفح الكيل ووصل الخلاف إلى ذروته فحضر الكولونيل ويلسن إلى بغداد وتمكن من إقناع كوكس بتنحية فيلبي وإحلاله (ويلسن) في محله ببغداد. وعندئذٍ طلب المستر فيلبي أن يرسل على رأس الوفد الذي تقرر إرساله إلى ابن سعود في الرياض. فوافق كوكس على ذلك وأجريت الترتيبات اللازمة لسفره، فتم ذلك وكان هذا أول اتصال له بابن سعود. حيث بقي في الجزيرة العربية مدة تقارب السنة عاد بعدها إلى بغداد. وبذلك يبدأ البحث الوارد في هذا الكتيب.

والكتيب هذا هو فصل خاص كتبه المستر فيلبي في كتابه الذي أصدره عام ١٩٤٨ بعنوان «Arabian Days»، الذي يبحث فيه عن نشأته وتوظفه واشتغاله في العراق وشرق الأردن وجزيرة العرب. وقد وجدت في هذا الفصل المعنون «العراق في دور التكوين» معلومات هامة ذات وجهة نظر خاصة عن العراق في أيام الحكومة الوقتة ومطامع السيد طالب باشا النقيب ودعوة فيلبي إلى الجمهورية مع مجيء الأمير فيصل إلى العراق وغير ذلك من الحوادث التي يهم العراقيين والمعنيين بتاريخ العراق السياسي معرفته. يضاف إلى ذلك ما استطرق إلى بحثه عرضاً من عوامل الخلاف بين الشريف الحسين وابن سعود التي أدت إلى واقعة الخرمات على الحدود النجدية الحجازية.

ويُلاحظ مما كتبه فيلبي في هذا الكتيب وغيره أنه رجل يكاد يكون شاذاً في سلوكه معتداً بآرائه، وأنه كان يميل إلى جعل نظام الحكم في

العراق نظاماً جمهوريًا يكون على رأسه السيد طالب باشا النقيب الذي كان يميل إليه ميلاً خاصًا. وأني أرى أن ما كان يدفعه إلى ذلك هو كرهه للشريف الحسين وأسرته وانحيازه إلى ابن سعود الذي قضى عنده في الجزيرة مدة تقارب السنة قبل أن يعود إلى العراق ويشتغل موظفاً بريطانيًا في الحكومة الموقتة. حتى أنه لم يتورع، بذلك الدافع، عن مفاتحة الأمير فيصل قبل وصوله بغداد بأن نجاحه في ترشيح نفسه للعرش العراقي غير مضمون، فأدى ذلك إلى إخراجه من الخدمة في العراق.

وبعد أن أنهى إجازته وعاد من تجواله في إيران عرضت عليه الحكومة البريطانية، بواسطة كوكس، الخدمة في إمارة شرقي الأردن بوظيفة «الممثل الأول للحكومة البريطانية» هناك خلفاً للمستر لورنس المعروف. فوافق على ذلك في الحال وتوجه إلى هناك. وقد بقي في هذا المنصب مدة تقارب الثلاث سنوات حاول أن يشتغل خلالها من أجل ايصال تلك الأمارة إلى مرحلة الاستقلال التام بكل جدية كما يقول. إلا أنه يظهر أن جدّيته هذه، أو شذوذه كما يمكن أن يقال، أدت به إلى التصادم أيضاً. حيث أنه اصطدم مع حكومة فلسطين والمندوب السامي فيها السر هربرت صموئيل أو مع السياسة البريطانية نفسها وما كان مبيتاً فيها لشرقي الأردن. حيث أن حكومة فلسطين كانت تحاول فرض سيطرتها على شرقي الأردن بشتى المناسبات والأساليب لتقضي على استقلال شرقي الأردن. ومن يدري، فربما كانت للسر هربرت صموئيل، المندوب السامي البريطاني في فلسطين الصهيوني الأصل[١]،

(١) كان السر هربرت صموئيل قبل مجيئه إلى فلسطين من أبرز الرجال الذين اشتغلوا مع الساسة البريطانيين أمثال لويد جورج والسر أدورد غراي واللورد بلفور من أجل القضية الصهيونية، مما أدى إلى مبادرة الحكومة البريطانية للتصريح بوعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧. ويقول السر رونالد ستورز، أحد المشتغلين بشؤون البلاد =

أغراض من هذا التدخل، لأن أطماع الصهيونية قد برهنت أخيراً على أنها لا تكتفي باغتصاب فلسطين وحدها! ويقول المستر فيلبي بشأن هذا التدخل أنه «عند مقابلتي للمندوب السامي اغتنمت الفرصة فاستعرضت جميع حوادث الاحتكاك التي وقعت بيننا في الستة الأشهر الأخيرة. كما قلت له أنني لا يسعني سوى أن أشعر أنه هناك ميل عنده إلى مد رواق سيطرة حكومة فلسطين على إدارة شرقي الأردن بخلاف السياسة التي صرح لي بها المستر تشرشل نفسه وأيدها بعد ذلك «دوق ديفونشاير»[1] خلال زيارتي للندن. ولا يمكنني بأي وجه من الوجوه أن أساهم في مثل هذا التبدل الرجعي في السياسة، كما أنني بالنسبة لهذه الظروف لا يسعني إلا أن أرفع استقالتي... ثم أضفت قائلاً أن الجهود التي بذلتها في شتى المناسبات لخدمة سياسة حكومة صاحب الجلالة في السنين الأخيرة كانت تُحبط بانتظام بواسطة تبدلات فجائية مثل هذه، الأمر الذي يصبح شيئاً ضاراً بالنسبة لمصلحة الجهات المختلفة التي يعنيها الأمر. وبالنظر لهذا قررت، مع مزيد الأسف، أن أقطع اتصالي بالحكومة نهائيًا لأجل أن أكون مطلق الحرية في نقد سياستها عندما أرى ضرورة لذلك. وعلى هذا سأكون مسروراً إذا كان في وسعه (المندوب السامي) أن ينقل رغبتي هذه إلى الجهات المختصة واستقالتي من الخدمة المدنية في الهند من تاريخ انتهاء إجازاتي التي استحقها عن خدماتي السابقة كلها».

فقبلت استقالته على هذا الأساس وغادر عمان في ١٧ نيسان

= العربية المشهورين، أن السر هربرت صموئيل هذا كان أحد رجال الصهيونية الذين رافقوا حاييم وايزمن عند مواجهته للمغفور له الملك فيصل إبان وجوده في أوروبة (مؤتمر الصلح) لإقناعه بالاعتراف بالوطن القومي اليهودي في فلسطين. ويبدو أن تعيينه مندوباً سامياً في فلسطين كان شيئاً مقصوداً.

(١) وزير المستعمرات في ١٩٢٣.

١٩٢٤. وقد واجه الأمير عبدالله[1] مودعاً قبل سفره، وهو يقول أنه خاطبه قائلاً: «لقد عملت جهدي أن اشتغل من أجلك، ولم تكن لي رغبة منذ مجيئي إلى هنا سوى أن أرسّخ سلطتك على أسس ثابتة كأمير مستقل في دولة مستقلة. وبرغم ما حصل بيننا من الاختلاف الطبيعي أحياناً فقد كنت صديقك وزميلك إلى الدوام. وسوف تجد أن خلفي سيكون سيدك مهما كان في أسلوبه من الصداقة. واني متأسف أن أحلامي بتأسيس دولة عربية في شرقي الأردن لم تتحقق، وسوف لا تتحقق في المستقبل مطلقاً. فإذا كان ذنبي هو ذلك فإني أطلب العفو من سموك». وفي الحفلة التي أقيمت لتوديعه ألقى خطاباً قصيراً قال فيه: «أني أُشبّه زوجتي ونفسي بفأرين يهربان من سفينة غارقة. حيث أن شرقي الأردن قد تتقدم في المستقبل، إلا أنها سوف لا تكون مستقلة كما كنت أومل لها أن تكون».

وبذا انقطعت علاقته بالحكومة البريطانية وعاد إلى وطنه انكلترة.

---

(١) ندرج فيما يلي ما جاء في ص٢٩١ من «مذكرات الملك عبدالله» (الطبعة الثانية) عنه: ولما حضر الكولونيل لورنس إلى عمان ومعه حداد باشا للنظر في المعاهدة الحجازية - الإنكليزية - بقي وكيلاً للمعتمد إلى أن تهيأت الأسباب فعين مستر فيلبي معتمداً بشرقي الأردن. وهو معروف لدى العرب على شيء كثير من الاخلاص في البلاد التي يعمل فيها.
ومن جملة ما أذكر له - كفكرة ظريفة - في إحدى الليالي، وقد كان في المجلس شخص طلب أن يكتب كل من حضر المجلس جملة أدبية، فكتب المستر فيلبي البيت المشهور لعبيد بن الأبرص:
ساعد بأرض ما دمت فيها ولا تقل أنني غريب
وهذا شاهد على ما قلت. وأن إخلاصه للملك عبد العزيز بن سعود يكاد يفوق إخلاصه لملكه وبلده. وقد سافر معي إلى لندن في السفرة الأولى، ولم يأل هناك جهداً في القيام بواجبه. ولقد كان بيننا أحياناً ما يكدر صفو الوداد لصلف يبدو منه. ولقد كان هنا يوم شرف الوالد المرحوم شرقي الأردن وحين البيعة بالخلافة، ولقد حرض الناس وحضهم عليها.

وهناك اتفق مع روزيتا فوربس السائحة المشهورة، التي ارتادت الصحراء الكبرى مع أحمد حسنين في افريقية، على ارتياد الربع الخالي في جزيرة العرب على نفقة جريدة «الديلي تلغراف»، وكان يأمل أن يحصل على معونة صديقه ابن سعود في مهمته هذه. غير أن الرياح كانت تجري بما لا تشتهي السفن. حيث أن الوهابيين هاجموا الحجاز لقتال الشريف الحسين سنة ١٩٢٤، فانشغل ابن السعود عن مساعدته لفيلبي في مهمته الاستكشافية، وبذا أجّل الاضطلاع بها[١]. غير أن عيونه ظلت ترنو إلى الجزيرة العربية على الدوام. فعرض على الدكتور ناجي الأصيل، وكيل الحكومة الحجازية في لندن يومذاك، أن يضع نفسه تحت تصرف الملك علي ليقوم بدور الوسيط بين الطرفين: فوافق الملك علي في جدة على ذلك وسافر إلى الحجاز إلا أن وساطته لم تجد نفعاً فأكمل الوهابيون تحرير الحجاز بأجمعه. وهو يقول خلال البحث عن الوساطة: «وكان يظهر أن ابن السعود كان على وشك أن يكون مستعدًّا للبحث في التفاهم مع الملك علي الذي كان ضعيف الأمل في الحصول على أي تأييد من الحكومة البريطانية التي سرها سقوط الحسين».

وبرغم تحذير البريطانيين وتهديدهم للمستر فيلبي بعدم التدخل في الموضوع، توغل بعد ذلك في داخلية الحجاز واتصل بابن السعود. وبقي في الحجاز والجزيرة بالقرب منه فكان أشبه بمشاور له في شتى الشؤون. حتى أنه يقول أن ابن السعود عندما تمهد له الأمر بعد عدة سنين أمر بتخصيص راتب خاص له فرفض هو ذلك. وقد قيل أخيراً أنه تزوج من أميرة سعودية فتركته زوجته الإنكليزية وعادت إلى بلادها. وقد استطاع عند تردده على لندن أن يقنع بعض الممولين الإنكليز بتأسيس شركة أسموها «الشركة الشرقية المحدودة»، فتأسست في الحجاز وانكلترة

(١) لقد تسنى له بعد ذلك ارتياد الربع الخالي، فأصدر كتابه القيم عنه في ١٩٣٣.

وتوسعت أعمالها التجارية برئاسته هو وبقيت كذلك حتى الآن. فتوفق في استيراد سيارات فورد وتعميمها في الحجاز على الأخص. ومما يجدر ذكره أيضاً أنه، بحسب ما يدعي، هو الذي أشار على ابن السعود بوجوب استقدام الأجانب للبحث عن المعادن في المملكة العربية السعودية، وهو الذي خابر له الشركات الأميركية والبريطانية، لأنه وجد كما يقول أن ابن سعود كانت فيه حاجة ماسة إلى المال. وكانت النتيجة أن توفق الأمير أخذ امتياز استخراج البترول منه متسابقين بذلك مع البريطانيين. وقد غضبت عليه الحكومة البريطانية في هذا الشأن.

وقبل إنهاء هذا البحث المقتضب عن المستر فيلبي **لا بد من الاشارة إلى قضية اعتناقه الإسلام المعروفة**. فهو يقول قبل أن يروي قصة اسلامه «...لقد تعلقت بالجزيرة العربية وغرمت أبها، وكانت المشكلة التي واجهتني منذ ١٩٢٥ هي هل أنا مستعد للسير إلى الأخير مع العرب، أو هل يكون من المعقول أن أعود من حيث أتيت فأحاول مرة أخرى أن أمكّن نفسي في المحيط الذي هيأته لي نشأتي ودراستي؟ ولم يكن ذلك اختياراً يسيراً أسارع للبت فيه بسهولة. فقد كنت لا أزال في عمر باكر يؤهلني للطموح في الحصول على منزلة سياسية في انكلترة من دون أن يؤثر ذلك على المصالح التجارية التي أسستها في جدة. وكان لا يزال، من جهة أخرى، عندي شيء كثير عن جزيرة العرب مما يجب أن أتعلّمه فأعلّمه للعالم، ويبدو أنه كان من الغضاضة أن لا أمكث هناك وأتم انجاز العمل الذي بدأته منذ مدة والذي عندي مثل هذه المؤهلات له».

ثم يتابع قصته عن اعتناقه الإسلام بقوله: «...ومنذ أيامي الأولى في الهند انجذبت إلى الإسلام انجذاباً تامًّا لتأكيده الشديد على ما كان يبدو لي صالحاً من الفلسفة وأساليب الحياة الخالدة. ولم أكن مسيحيًّا منذ مدة طويلة بل كنت فيلسوفاً من دون أن يكون لي إحساس أو اقتناع ديني مع أنني كنت مستعداً للاعتراف بأن الدين للسواد الأعظم من البشر

يعد ضرورة لا مفر منها. وكان الإسلام في الهند، من جهة أخرى، يبدو لي أنه قد حُمّل بأكثر من اللازم من المبادئ والطقوس الدينية غير الأساسية التي كان يصعب قبولها من غير شيء كثير من التحفظ والاحتراز. وقد وجدت السنين في العراق على شيء غير يسير من الضحولة والرسميات في ممارسة الدين والتفكير به، بينما لم تجتذبني العقيدة الشيعية بقدّيسيها وعلمائها الأصوليين. وعلى هذا لم اتصل بما كنت اعتقده الشكل النقي الطاهر من الإسلام دون شك أو نكران إلا عندما ذهبت إلى الجزيرة العربية، ذلك الشكل الذي يستمد تعاليمه بالكلية من منابع وحيه الأصيلة في القرآن وسنة النبي ولا يمت بشيء إلى ما طرأ على التعاليم بعد ذلك من التفسير والتأويل. وقد لاح لي، بعد درس عميق، أن العقيدة الوهابية هي الشكل المثالي من الدين، كما أن تعصب أتباعها لم يكرّههم في نظري، حيث وجدت عندهم مزية ممارسة ما يعتقدون به ويدعون إليه، كما أن عقيدتهم تبدو كتفقة اتفاقاً تامًّا مع ما تتطلبه حياة الانسان والمجتمع البشري بأبسط أشكالهما. وهي عقيدة في وسع المرء أن يتقبلها دليلاً في حياته ومسلكه من غير أن يتكون في مخيلته عدم النزاهة الفكرية، كما أن مقاييسها الأخلاقية يلوح منها أنها تناسب حاجات البشرية الأساسية أحسن مما تناسبها الديانات الأخرى كالمسيحية مثلاً. ولئن كان تشريعها قاسياً من بعض الوجوه فهي لا تقر الزيف، كما أن تعدد الزوجات الذي تقره، والذي كثيراً ما كان هدفاً للنقد والتجريح، فيه من التدابير ضد العهر والفسق ما يفضل على التدابير الموجودة في الوصايا العشر». وبعد أن يسرد كيفية دخوله الإسلام واعتناقه إياه نهائيًّا وأخذه إلى مجلس الملك ابن السعود يقول: «...وقد روى الملك للجمع المحتشد كيف صفقت السيدة نورة شقيقته من فرحها عندما سمعت أنني أصبحت مسلماً، ثم قص عليهم بعض ما كان دار بين كلينا من الحديث قبل سنين في هذا الشأن. ثم قال فجأة أننا يجب أن نجد

اسماً جديداً له. فماذا تقترحون كلكم؟... لماذا لا نسميه عبدالله؟ نعم، فليكن اسمه عبدالله، عبدالله فيلبي! وهكذا كان منذ ذلك اليوم حتى الآن».

وآخر ما نعرفه عن تدخل المستر فيلبي في السياسة العربية هو ما ذكره حاييم وايزمن، رئيس دولة اسرائيل المزعومة، في ص٤٢٧ من كتابه الموسوم «التجربة والخطأ»(١) الذي نشره سنة ١٩٤٩ عن تاريخ حياته. فقد قال في معرض اشتغاله للصهيونية خلال الحرب العامة الاخيرة ما يلي:

«لقد غادرنا إلى أميركية يوم ١١ مارت، وفي يوم سفري مررت برقم ١٠ داونينغ ستريت لأودع المستر جون مارتن السكرتير الشخصي للمستر تشرشل الذي كانت علاقتنا به علاقة طيبة لأنه كان سكرتيراً مقتدراً «للجنة بيل». وبعد أن ودعته قال لي فجأة: «أن رئيس الوزراء في الغرفة الأخرى، وليس عنده غير قليل من الوقت سأدخلك عليه خلاله». وهناك جرى بيننا حديث قصير غريب تكلم فيه هو جميع الوقت، لأنني لم أنطق بسوى كلمة التوديع. على أنه ضمّن كلامه كثيراً من الأشياء في هذا الحديث القصير الذي قاله ونحن واقفون على أرجلنا.

«حيث أنه تمنى لي رحلة سعيدة إلى أميركة، ثم قال: أنني سعيد أنك ذاهب إلى هناك، وأنا متأكد أنك سوف تجد أشياء كثيرة تشتغل فيها». ثم تابع كلامه قائلاً من دون سؤال أو تلقين مني: «**أريدك أن تعرف أنني عندي ترتيب خاص لا يمكنني أن أدبره بلا شك إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها. فإنني أريد أن أجعل من ابن سعود سيد الشرق الأوسط - رئيس الرؤساء** - بشرط أن يجري تسوية معكم. وسيترتب عليكم أن تحصلوا منه على أحسن الشروط الممكنة. وأننا سوف نساعدكم بطبيعة

---

(١) Trial and error, by Chaim Weizman, Harper & Brother, New York (1949).

الحال. فليكن حديثنا هذا في طي الكتمان، لكنك في وسعك أن تبحثه مع روزفلت عندما تصل أميركة. حيث ليس هناك شيء لا يمكننا أن نفعله هو وأنا إذا وضعنا فكرنا فيه».

«هذا هو جميع ما جرى من الحديث. لكنه كان شيئاً كثيراً بحيث صعقت به. والحق هو أنني لم أكن لآخذه بصورة حرفية لو لم تحدث أشياء بقيت تحيرني مدة من الزمن والتي لم تكن ذات معنى عندي إلا الآن. حيث أنني كنت قد صادفت قبل هذا الحديث بأشهر قلائل سنت جون فيلبي رحالة بلاد العرب المعروف وموضع ثقة ابن سعود. وقد تكلمنا يومذاك عن فلسطين وعلاقاتنا بالعرب، فأفضى لي بتصريح كنت قد دونته لكنه كان شيئاً غير مفهوم لدي لصدوره من عنده هو. فقد قال لي: «أنني أعتقد أن قضيتكم قد لا يمكن حلها إلا بشرطين فقط: أولهما، أن المستر تشرشل والرئيس روزفلت يجب أن يخبرا ابن سعود أنهما يرغبان في تنفيذ منهجكم. وثانيهما، أنهما يجب أن يؤيدا سيادته على البلاد العربية ويدبرا قرضاً له يمكنه من إعمار بلاده». ولم أفهم العلاقة بين «ما عرضه» سنت جون فيلبي و«ترتيب» المستر تشرشل إلا الآن.

«...وفي أميركة صادفت رجلاً يدعى الكولونيل هوسكينز، ويشتغل في دائرة الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية، وقد فهمت أنه الممثل الشخصي للمستر روزفلت في الشرق الأوسط. وكان موقف الكولونيل هوسكينز غير ودي بالنسبة لقضيتنا، لكنه لم يكن في موقف عدائي كما كان زملاؤه في دائرة الشؤون الشرقية. والحقيقة هي أنه كان يكاد يكون معقولاً نسبيًّا. فقد كان يرى أنه يمكن تدبير سيّئ في فلسطين إذا «اعتدل اليهود في مطاليبهم». وتحدث لي عن جلب مقدار نصف مليون من اليهود إلى فلسطين خلال عشرين السنة القادمة، وهذا «امتياز» لا يستهان به يمنحه رجل من معارضي الصهيونية.

«وقد غادر أميركة الكولونيل هوسكينز إلى الشرق الأوسط، وعندما

قابلته بعد عودته كانت لهجته مختلفة للغاية. فقد قال أنه كان قد حظي بمقابلة ابن سعود الذي تكلم عني بلهجة غاضبة فارضاً أنني كنت حاولت إرشاءه بعشرين مليون پاون ليبيع لقاءها فلسطين إلى اليهود. فتعجبت تماماً من هذا التفسير الذي فُسر به اقتراح لم تكن لي يد به قط، أن ابن سعود سوف لا يسمح مطلقاً لفيلبي الدخول إلى مملكته.

جعفر خياط

العودة إلى بغداد

لقد استقبلتني في بغداد غيرترود بيل بضمة وقبلة، وكان يسرها أن تسمع عما كان يجري في الجزيرة العربية أصدق الأخبار وأوثقها برغم أنها كانت تأمل بصورة سرية، بعد أن انتهت الحرب، أن تبادر السياسة البريطانية إلى الصفح عن ابن رشيد لتستفيد منه في إجراء توازن تجاه نفوذ ابن سعود المتعالي. أما ويلسن[1] فقد تلقاني بلطف ورقة كنجم جديد بزغ في سماء الشؤون العربية، مع جميع ما كان في منصبه الجديد من رفعة وجلال. وقد انشغلت انشغالاً تامًّا لعدة أسابيع بإعداد تقرير رسمي عن المهمة التي كلفت بها، وبعد ذلك بأيام تقبل ويلسن تقريري قبولاً حسناً وأمر بطبعه لينشر على جميع الجهات المختصة. وفي الوقت نفسه ساهمت في إحياء ذكرى «يوم الهدنة» في بغداد، ذلك اليوم الذي سبق حلوله إعلان التصريح الإنكليزي - الافرنسي المعروف في ٨ تشرين الثاني حول سياسة الدولتين المقبلة بالنسبة للبلاد العربية التي تحررت من ربقة الحكم التركي.

وقد اتفقت غيرترود وأنا اتفاقاً تامًّا على أن ذلك التصريح كان تصريحاً يدعو للاعجاب من حيث السياسة الحرة التي تضمنها، لكنه كان

---

(١) السر آرنولد ويلسن وكيل الحاكم الملكي العام يومذاك.

بالنسبة إلى ويلسن[١] قنبلة أطلقت فحطمت مقدماً الجهاز الاستعماري الجسيم الذي كان يحلم بتعميمه منذ مدة طويلة على جميع بلاد الشرق الأوسط. ولأجل أن يسيء إلى آمال الاستقلال العظيمة التي أخذت تختلج في نفوس العرب بعد صدور هذا التصريح أصدر بياناً عن سياسته هو أوضح فيه، بعد أن أطرى وثيقة ٨ تشرين الثاني هذه الاطراء اللازم، أن الشعب العراقي غير قادر على حكم نفسه وأنه يقترح أن يبادر إلى تدريبه في أصول الحكم عن طريق التشكيلات البلدية. وبذا أعلن عن قرب إجراء الانتخابات للمجالس البلدية في المدن المهمة، تلك المجالس التي سيكون لها رئيس ونائب رئيس وسكرتير من البريطانيين بينما يكون للأعضاء المنتخبين الحق التام في البحث والمناقشة من دون أن يكون لهم حق التصويت! ثم بادر في الوقت نفسه، من دون أن يستشير «الوايتهول» إلى توسيع حدود العراق ليضم إليه منطقة الموصل التي كانت ما تزال في حوزة الأتراك غداة إعلان الهدنة. فبعث ليجمن[٢] لمفاوضة الحاكم التركي[٣] والقائد، كما أعطيت التعليمات إلى القائد الإنكليزي المحلي، من قبل الجنرال مارشال الذي تولى القيادة بعد وفاة[٤] الجنرال مود في أواخر ١٩١٧، ليدعمه (يدعم ليجمن) بالقوة إن

(١) كان ويلسن من الاستعماريين البريطانيين الذين كانوا يناوئون تأسيس حكم وطني في العراق كما لا يخفى.

(٢) كان ليجمن أول حاكم سياسي عين في الموصل.

(٣) علي إحسان باشا.

(٤) قضى الجنرال مود نحبه في بغداد مساء يوم ١٨ تشرين الثاني ١٩١٧ بعد أن أصيب بالهيضة (الكوليرا) التي لم تمهله غير أيام معدودة. وقد أظهر التحقيق أن عدوى الهيضة قد أصابته من الحليب الذي تناوله مع الشاي في حفلة مدرسة الأليانس الاسرائيلية التي أقيمت مساء يوم ١٤ تشرين الثاني.

ويذكر السر آرنولد ويلسن في كتابه المشهور، بمناسبة وفاة مود، ما يلي: «وكان مثله كمثل الاسكندر الكبير، الذي توفي في بابل سنة ٣٢٣ قبل الميلاد، =

اقتضى الأمر. فسلم الأتراك الموصل محتجين ونفذ ويلسن ما كان يرتئيه. حيث أن ويلسن كان عازماً على الاستيلاء على أكثر ما كان في وسعه الاستيلاء عليه طالما كانت الفرص مؤاتية بصرف النظر عن وجود مؤتمر الصلح أو عدم وجوده.

= والامبراطور الروماني جوليان الذي مات في سامرا في ٣٦٣ بعد الميلاد، حيث أنه استولى على أراضي العراق الناكر للجميل فأصبح فريسة لها».

رجوعي إلى انكلترة

ولم يكن لي شأن في هذه الشؤون، لكن موقف ويلسن العام، وخاصة تجاه التصريح الإنكليزي - الإفرنسي، لم يحسّن لي الرأي للخدمة في العراق تحت رئاسته. وقد فكرت كذلك بأني ربما أكون أكثر تمكناً من التأثير على مجريات الأحوال إذا عدت إلى انكلترة، فلم يمانع ويلسن اقتراحي بأخذ الاجازة التي أستحقها.

وفي طريقي أعددت مذكرة طويلة تناولت فيها الخطوات العملية التي يجب اتخاذها في الاستفادة من التصريح الإنكليزي - الإفرنسي في العراق. فبعثت نسخة مها إلى ويلسن الذي تجاهلها، كما سلمت نسخة أُخرى إلى «المكتب العربي»[1] عندما كنت أنتظر الباخرة في مصر، لكنها فقدت حسبما يظهر. ثم قدمت النسخة الثالثة عند وصولي إلى انكلترة إلى «وزارة الهند» التي حفظتها فلفها النسيان. ولم تسلم من يد الحدثان إلا نسختي الخاصة، وأني أعتقد أن ويلسن لو كان عمل بموجب مقترحاتي لكان في وسعه أن يصيب شهرة عظيمة كواحد من أشهر إداريي بريطانية وأعظمهم سمعة.

وعلى كل، فقد وصلت انكلترة في كانون الثاني ١٩١٩ بعد مدة

---

(١) وهو المكتب البريطاني الذي أسس في القاهرة لتولي الشؤون العربية.

تزيد على العشر سنوات من المنفى في الشرق، ومما سرني أن اليوم الذي وصلت فيه كان يشبه اليوم الذي رأيت فيه انكلترة لأول[١] مرة عام ١٨٩١، حيث كانت السماء تجود برذاذ خفيف من المطر كانت مصابيح «شارع كرومويل» تبعث بهالاتها الشبحية من خلاله. وبعد أن تناولت عشائي في تلك الليلة سرت في الطريق تحت المطر لأتحسس نقره المترقق على خديَّ.

وقد أشغلتْ قسماً كبيراً من وقتي خلال هذه المدة زياراتي إلى «وزارة الهند» و«وزارة الخارجية» حيث وجدت غاربيت وهيوبرت يونغ على التعاقب يشغلان منصب الخبراء في شؤون الشرق الأوسط، وإلى «الجمعية الجغرافية الملكية». وقد جرت لي مقابلات مع أدوين مونتيغيو واللورد كرزن، وقضيت جميع ما تيسر لي من الوقت أشتغل اشتغالاً جديًّا بإحضار خرائطي عن الجزيرة العربية في «الجمعية الجغرافية» التي ساعدني وساعد زوجتي سكرتيرها أ.ر. هينكس في إيجاد دار مناسبة لنا، كان هو وأهله قد أخلوها قبل مجيئي، في محلة سنت بيترسبرغ - وهذه حلقة أخرى من حلقات أيام طفولتي. وقد انشغلنا بترتيب البيت وتأثيثه، كما كان عليّ أن أعدّ أولى محاضراتي في «الجمعية الجغرافية» و«جمعية آسية الوسطى». واستبان بأن كل شيء يسير سيراً مُرضيًّا، برغم أن مستقبلي كان شيئاً غامضاً جدًّا. فبعد أن اشتغلت في العراق وجزيرة العرب لم تكن لي رغبة في العودة إلى الخدمة المدنية في الهند التي كان في وسعي أن أعود إليها على الدوام. وقد عزمت في الوقت نفسه أن لا أعود إلى العراق وجزيرة العرب ما لم تَسر الحكومة البريطانية في الشرق الأوسط بموجب السياسة التي كنت أراها شيئاً معقولاً. وفي طريق عودتي

(١) كان المستر فيلبي قد ولد في سيلان ثم ذهب مع والديه إلى انكلترة وعمره ست سنوات.

إلى الوطن تسلمت في مصر برقية من ويلسن يطلب إليَّ فيها أن أزور سورية بالنيابة عنه وأقدم تقريراً عن التطورات التي كانت تحدث هناك والتي كان يمكن أن تؤثر تأثيراً خطيراً على العراق، غير أنني تصنعت التعب والممل وتملصت من الانصياع لذلك. وفي وقت متأخر من السنة نفسها كان قد دعاني، بواسطة وزارة الهند، للاشتغال في «تسوية الأرض» في إحدى مناطق الفرات، لكنني رفضت هذا الطلب أيضاً مبيناً عدم موافقتي على السياسة المتبعة في التسوية في جميع البلاد، التي اتخذها ويلسن ومستشاروه. ولم أدعَ للاشتراك في «مؤتمر الصلح» الذي كان من نصيب الأمير فيصل ولورنس أن يسيّرا لوحدهما فيه سياسة البلاد العربية وبلاد الشرق الأوسط الأخرى. ولم ترق لي، بوجه عام، مجريات الأحوال كلها لكنني كنت عاجزاً عن إحداث أي تأثير في تطور الأمور وسيرها لأن وزارة الهند كانت تؤازر خطط ويلسن الاستعمارية في العراق بينما كانت وزارة الخارجية تلتزم الشريف حسيناً وفيصلاً.

قضية الخرما(*)

وبعد ذلك تسلمت، بصورة غير متوقعة، في حوالي منتصف مارت دعوة برقية مستعجلة لحضور مؤتمر دائري لشؤون الشرق الأوسط يعقد في وزارة الخارجية. وفي غرفة الانتظار هناك وجدت جمعاً حافلاً من الجنرالية والأميرالية ووكلاء الوزارات مع هيوبرت يونغ سكرتيراً للمؤتمر. ثم دعينا بعد ذلك في حضرة **اللورد كرزن**، فوجدت مونتيغيو إلى جانبه. فافتتح ذلك الرجل العظيم الاجتماع بدماثته التي لا تجارى. وكان موضوع البحث المشكلة في الخرما. ففي خلال السنة التي كنت قضيتها في الجزيرة العربية كتبت أربع مرات عن الحركات الاعتدائية التي كانت تقوم بها القوات الشريفية ضد هذه الواحة التي دافعت عن نفسها بنجاح في كل تجاوز كان يحصل عليها. وفي المرة الأخيرة أُنذرت من قبل ابن سعود، فأنذرت بدوري الحكومة البريطانية بأن أي تعدٍ سيحدث بعد هذه المرة سيدفع ابن السعود إلى تجريد قوة تلقي على المعتدين درساً قاسياً على وجه التأكيد. فأوقف الشريف الحسين عند حده، لكن صبره قد

(*) الخرما هي الموقع الكائن على حدود الحجاز ونجد الذي اصطدم فيه الجيش الشريفي بالوهابيين فدحر على أثر الاختلاف بين الشريف الحسين وابن سعود بشأن الحدود.

قارب النفاذ الآن فطلب بصورة جازمة أن تقوم الحكومة البريطانية بتسوية هذا النزاع على الحدود في صالحه، ثم هدد بمهاجمة الموقع إذا رفض طلبه. وبذا فقد كان الوضع ينذر بشر مستطير. على أن اللورد كرزن لم يشرح الموقف إلى الجمع الحافل من الموظفين الكبار على هذه الصورة. حيث قال «أن الموقف هو أننا كنا قد وعدنا الطرفين بتسوية النزاع الحاصل بينهما. وها أن الحسين يلح الآن على إجراء التسوية كما يحق له أن يفعل ذلك. وقد درست الحجج التي قدمها الطرفان درساً وافياً، وأن المستر فيلبي كان شرح الموقف لابن سعود بنفس البراعة التي كانت تتطلبها رغبة ابن سعود. وهناك في الحقيقة مجال للاختلاف في الرأي بالنسبة للقضية نفسها، لكن الأمر أصبح يتطلب الحل، والمشكلة هي مشكلة سياسة لا مشكلة القضية نفسها. حيث أن سياستنا في جميع القضايا العربية هذه هي سياسة حسينية، ولا نرانا بحاجة لمناقشة الأسس التي تبنى عليها. لكنها مع ذلك هي شيء أكثر من مشكلة سياسية. حيث أنها قضية لياقة وأهلية أيضاً. وأننا يجب أن نقتنع بأن صاحبنا سوف يربح إذا أدى الأمر إلى التصادم إذا حسمنا المشكل في صالحه كما يحلو لنا أن نفعل. وإلا فإن العواقب ستكون خطيرة حقاً». ومع هذا الحديث طلب رأي الأميرالية والجنرالية الذين صرخوا على نسق واحد قائلين أن شرذمة من الوهابيين المتعصبين الجفاة لا يمكن أن تقف وقفة طويلة في وجه جيوش الحجاز النظامية المدربة تدريباً بريطانيًّا والمجهزة تجهيزاً بريطانيًّا بالسلاح البريطاني.

وبعد ذلك دعيت أنا لأبدي رأيي، فتشجعت وهاجمت رأي الخبراء العسكريين الاجماعي. فقلت أنه: «لا يوجد أحد هنا ممن رأى القوات الوهابية أو درس حالتها، ولا يسعني إلا أن أقول من دون محاباة بأنني أرى أن الموقف إذا أدى إلى التصادم، وأنا أعتقد أنه سيؤدي إلى ذلك إذا قررنا شيئاً ضد ابن سعود، فإن الوهابيين سوف لا يجدون أقل صعوبة في قهر القوات الحجازية».

«شكراً، مستر فيلبي» أجابني الرجل العظيم بلطف، ثم استطرد فقال: «أن رأيك سينظر فيه، لكن مناقشات قضايا كهذه لا يمكن أن تجري إلا على أساس الأكثرية، وأنك ترى أنك لا تكوّن إلا أقلية ضئيلة».

فأجبته «نعم سيدي إني أقدر ذلك».

ثم تابع كلامه: «إذن فالقضية منتهية. حيث أن خبراءنا العسكريين أشاروا بأننا في وسعنا أن نتابع السير بموجب الخطة الموضوعة من قبل، وعلى هذا فإن قرار هذا المؤتمر هو أن الحسين سوف يخول رسميًّا باحتلال المنطقة المنازع عليها التي حُكم إليه الآن بها. ويجب أن يُخبر ابن سعود بالأمر بالطرق المألوفة مع إنذاره بأن أية محاولة تبدر منه في المقاومة سوف تؤدي إلى استياء حكومة صاحبِ الجلالة الشديد، وأن المنحة المالية التي يتقاضاها الآن على الأخص سوف يوقف دفعها في الحال إذا لم يقبل بقرارنا. ويجب إصدار التعليمات المقتضية حالاً. وهناك شيء آخر لا بد من التطرق إليه، وهو أنني متأكد أن المؤتمر قبل أن ينفض اجتماعه يود أن يستمع إلى رأي المستر فيلبي عما يؤمل أن يحدث عندما يتسلم ابن سعود هذه الأوامر».

فقلت: «أنني، يا سيدي، لا يخامرني أي شك بأن الكتاب حالما يصل إلى الرياض فإن ابن سعود سيبادر إلى تعبئة قواته في الحال فيسير إلى الدفاع عن الخرما. حيث أنه كان قد وعد بذلك، وسواء دفعت إليه المنحة المالية أو قطعت عنه فإنه سوف يبر بذلك الوعد. وقد سبق لي أن أبديت لكم برأيي في النتيجة المحتملة الوقوع». وقد انفض المؤتمر في جو من الصفاء العام، بعد ان سُخف رأي المدافع عن الشر، وكان الجميع يعتقدون بأني كنت مخطئاً. فرددت «أنشودتي» العربية الأخيرة، وفي طريق عودتي إلى البيت توصلت إلى قراري حول المستقبل الذي أيدتني فيه زوجتي. حيث قررنا الرجوع إلى الهند في تشرين الثاني، وفي الوقت نفسه وجب علينا إيجاد مدرسة ابتدائية مناسبة نضع فيها ولدنا

البالغ من العمر سبع سنوات. وقد اشتغلت اشتغالاً متواصلاً بالمادة الجغرافية المتوفرة لدي حتى بداية شهر مايس، عندما أغلقنا بيتنا في لندن وتوجهنا إلى إيستبورن حيث مكثنا شهراً واحداً فتشنا فيها عن مدرسة مناسبة. وفي صباح يوم الاثنين في منتصف الشهر تسلمت رزمة من المكاتيب كان قد بعثها إليّ طباخنا الذي كان يمر بدارنا في لندن بين حين وآخر. فكانت بينها برقية مؤرخة بتاريخ الجمعة الأخيرة تنص على ما يلي: «أن حضورك مطلوب عاجلاً، يعقد الدوائر في الخامسة من بعد ظهر اليوم، وزارة الخارجية - يونغ». وعندما فاتني حضور المؤتمر على هذه الشاكلة حررت كتاباً إلى يونغ أوضحت فيه سبب تغيّبي وعبرت عن أملي بأن كل شيء سائر على ما يرام. وجواباً على هذا تسلمت برقية هذا نصها: «تأجل المؤتمر بالنظر لغيابك، القضية مستعجلة جدًّا، أبرق الوقت الذي يمكنك فيه الحضور». فأبرقت رداً على ذلك بما يلي: «سوف أحضر إلى وزارة الخارجية في الخامسة اليوم الثلاثاء».

وفي غرفة الانتظار وجدتهم مجتمعين كلهم، الجنرالية والأميرالية والباقين، وفي أوجههم إمارات الخطورة. وعندما كنا ننتقل إلى مجلس اللورد كرزن قال أحدهم: «الظاهر أننا لعبنا الجواد الخاسر». وقد افتتح اللورد كرزن المؤتمر قائلاً: «لقد اجتمعنا هنا قبل شهرين وتوصلنا إلى قرارات اتخذ ما يلزم لتنفيذها. ونجتمع الآن للنظر في نتائج ما عملنا تنفيذاً لتلك القرارات. فإن الحسين بعد أن خولناه، بعث بجيشه بقيادة ولده عبدالله لاحتلال الخرما. وقد خابت استطلاعه في اكتشاف ما يدل على وجود أي تحشد وهابي أو على اتخاذ أي عمل مقابل. غير أنه في الساعات المبكرة من يوم ١٩ مايس انقض الوهابيون بقوة من جميع الجهات على معسكره. ففر عبدالله[1] وضباط أركانه على ظهور الجياد

---

(١) وزيادة في الايضاح رأيت من المناسب أن أورد في هذه الحاشية فصلاً صغيراً من =

إلى الطائف، وقُضيَ على بقية جيشه. هذا ما كان من ناحية القتال. أما

= كتاب «مذكرات الملك عبدالله» عنوانه «معركة الخرما - الملحمة التي غيرت معالم النهضة العربية ونتائجها». فيقول:

تلقيت أمراً من الشريف الحسين بأن أرجع بالجيش الشرقي إلى الطائف لتأديب الشريف خالد ابن لؤي بوادي الخرما، وكان الشريف خالد هذا اعتنق المذهب الوهابي وطرد قاضي الخرما الشرعي وقتل الأبرياء كما قتل الشريف بعيجان شقيقه لأنه لم يطعه على فساده، ثم أخذ يغير على من لم يدخل في هذا المذهب من العشائر التابعة للمملكة الهاشمية الحجازية.

وكان المرحوم قد وجه الشريف حمود بن زيد بقوة تأديبية إلى الخرما فلم يستطع عمل شيء، ثم وجهه مرة أخرى فغلب وجرح، فأمددته وأنا بوادي العيس بقوة كافية بقيادة المرحوم الشريف شاكر بن زيد فذهب بها وبعد تلكؤ بمران توجه إلى الخرما ونزل بشرقيها في الوادي نفسه فهوجم وهو في منزله وغلب كما غلب الشريف حمود قبله. فجهز الملك المرحوم قوة أخرى وبعث بها معه ومع الشريف الأمير عبدالله باشا بن محمد بن عبدالله بن عون فبقيت هذه القوة...

قلنا تلقيت أمراً بأن أتجهز حالاً وأن أقصد الخرما رأساً من المدينة المنورة فحاولت منع ذلك لأسباب أولها أن الناس سئمت الحرب ضد الأتراك وأن الجنود المأجورين أثروا وامتلأت جيوبهم ولم تعد لهم رغبة في حرب أو جلاد.

فاستأذنت بأني أحب القدوم إلى عشيرة - وهي ماء شمال الطائف وبها آبار عذبة على طرف الحرة في حد سهل من جبل - لأبعث بالأثقال وأتشرف بلثم اليد الملكية، فوافق رحمه الله... ولما وصلنا إلى عشيرة وجدت المرحوم هناك فسر بما رأى من قوة ومعدات. وكنت عرضت على جلالته في كتاب قبل وصولي بأني أرى لزوم تأخير هذه الحركة زيادة للتبصر وتمحيص الأمر فأجابني رحمه الله بجواب عرفت منه عزمه، وهو قوله: «يجب عليك أن تتوجه إلى الخرما للقضاء على هذه الحركة الفسادية، وأن معك من القوة ما لو قاتلت بها كل العرب لتغلبت عليهم».
ولو علم جلالته حقيقة ما أعرف لكان من الرأي على غير ذلك... كنت أؤمل أنني سأصرفه عن عزمه. فلما اختليت به وعرضت عليه رأيي غضب غضباً شديداً وقال: هذا رأي أم عصيان؟ فقلت: أعوذ بالله من المعصية والعصيان ولكنها النصيحة فإنني عالم بنفسية الفريقين. فقال: إذن إن لم تفعل ما آمرك به فأنا متخل عن الملك.

من النواحي الأخرى، فإن وكيلنا في جدة يخبرنا بانتشار الرعب والفزع هناك وفي مكة والطائف حيث أخذ السكان يتقاطرون منها إلى جهة الساحل، وفي ضمنهم (١١,٠٠٠) من رعايا بريطانية الهنود. وهو يخبرنا أيضاً أن الوهابيين يتقاطرون شرقاً معقبين عبدالله تعقيباً سريعاً، والمتوقع

= فاستعذت بالله وقلت: أنني فدى لكم ولرغبتكم وأنني ذاهب حسب إرادتكم. وكنت وكأني أنظر إلى مصارع القوم بعيني فأضفت قائلاً: سأصدع بالأمر وأسأل الله لجندكم الظفر ولنفسي الشهادة.

فعاد رحمه الله إلى مكة وتوجهت بالقوة التي معي إلى البديع.. فأقمت وأخذت أبعث مستطلعاً العدو، وإذا بأمر سام يردني يأمرني بالقدوم حالاً، وفيه أنه إذا لم تنفذ ما أمرنا به فستكون التبعة علينا.... وبعد التشاور مع من أعتقد في إخلاصه من الرؤساء رجحت الاستيلاء على مدينة تربة وحصنها المعروف برمادان وهو الذي انكسرت فيه وأبيدت عن آخرها القوة المصرية في حركة الوهابيين الأولين.

فتحركت بالجيش صباحاً وأمسيت بالقرب منها، وفي اليوم الثاني ضربت وافتتحت... ثم مضت أيام وإذا بجموع الهالية تصل إلى الخرما وتجتازها إلينا. وأغارت خيلهم على سرحنا وتقابل الخيلان وقدر الله فطردناهم. وبعد ليالي ثلاث جاؤوا بمجموعهم يجرون الحجر والشوك، وهم عشائر مطير الدويش ومن معه وعشائر حرب أهل نجد وعشائر عتيبة وعلى رأسها سلطان بن بجاد الملقب بسلطان الدين وعشائر أهل الوديان، يزاحمون الخمسة والعشرين ألفاً.

وكانت القوة التي معي من حيث قوة النار لا بأس بها، وأما العدد فكان الجند النظامي خمسمائة والجند من أهل الحجاز والارهاط المكتوبة ثمانمائة وخمسين.

فصبحونا بالخرما وكانت الملحمة، فاستشهد من الأشراف ثلاثة وخمسون في صفنا، ولم ينج من النظاميين إلا ثلاثة ضباط هم الأميرالاي صبري بك والقائد ابراهيم الراوي والقائد حامد الوادي، وسلم من القوة العربية الحجازية مائة وخمسون رجلاً. أما هم فلم يبلغوا منا ما أرادوا إلا بعد أن أنزلت فيهم خسائر في الأرواح فادحة وعلى ما قيل لي أن عدة من دخل العدة من نسائهم في الأرطاوية - قرية - كن سبعمائة وخمسين امرأة، هذا في قرية واحدة. وقد بلغني أن رأيه أهل الرين لم يرجع منها سوى ثلاثة أفراد. وكان قتلاهم فوق السبعة آلاف، والحول والقوة بالله وكانت نجاتي منهم معجزة من المعجزات.

أن يصلوا الطائف ومكة عاجلاً. وهو يأمل تفشي الأمراض الوبائية بين اللاجئين المزدحمين في جدة، حيث يشح الماء وتنعدم الترتيبات الصحية. وعلى هذا فإنه يطالب على الأقل بحماية اللاجئين العسكرية السادة وبإرسال البواخر لنقلهم إلى أوطانهم بأسرع ما يمكن. هذا هو، أيها السادة، الموقف الذي يتحتم علينا النظر فيه، ولا نعلم مقدار التدني الذي طرأ على الموقف منذ الوقت الذي بعث فيه البرقية قبل ستة أيام. وعلى هذا ماذا في وسع الأميرالية أن تصنعه لنا فيما يختص بالبواخر أولاً؟» وعندئذٍ تكلم الأميرال الأقدم قائلاً: «الدي تعليمات بأن أوضح للمؤتمر أنه بالنسبة لقلة البواخر المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر ليس في وسعنا تهيئة حتى ولا باخرة لهذا الغرض، فكيف بنا وهذا الأمر يحتاج إلى دزينة من البواخر أو ما يقارب ذلك». فرد اللورد كرزن بقوله: «إذن ماذا في وسع وزارة الحرب أن تفعله لنا؟ حيث لا يمكن أن ندع هؤلاء الناس يُذبحون بدم بارد من قبل الوهابيين». فرد على ذلك أحد الجنرالية قائلاً: «أني أخشى أننا لا يمكن أن نفعل شيئاً يا سيدي. حيث أن وزارة الحرب عازمة عزماً تامًّا أن لا تورط نفسها بعد هذا في أية مجازفات عسكرية في الجزيرة العربية. لأننا عندنا ما يكفي من هذا القبيل الآن». وعند ذاك قال الرجل العظيم: «يظهر لنا إننا لا نتمكن من عمل شيء مطلقاً لأولئك الناس. والآن هل في وسعك يا مستر فيلبي أن تساعدنا في شيء؟ فإن رأيك فيما كان يحتمل أن يحدث من التطورات ثبتت صحته تماماً بجميع ما كان فيه من تعطيل». وقد كان في حديثه أكثر إطراءاً من ذلك بالفعل كما كان سخيًّا للغاية، شأنه في ذلك شأن العظماء الحقيقيين فقط. فرددت عليه بقولي: «أنه ليس هناك أي مجال للذعر والهلع من قبل كل شيء. حيث أنني لا أعتقد أن الوهابيين يعقبون انتصارهم الآن». فبانت عليه سورة الغضب، لكنه ضبط أعصابه ليقول: «أرجوك مستر فيلبي لا تكن أحمق» - أظن أنه تفوه بهذه الكلمة، أو كانت شيئاً من هذا

القبيل على كل حال - «حيث أن تقرير وكيلنا يشير إلى هذا، ومن المؤكد أن الوكيل البريطاني هناك يجب أن يعلم عما يقع هناك بالفعل أكثر مما يمكنك معرفته». **فرددت عليه بجرأة:** «كلا، فإنه لا يستطيع معرفة غير ما يخبره به الشريف الحسين، ونحن أدرى بمقدار الثقة التي نضعها في مثل ذلك. كما أن أقوال اللاجئين لا يُعتد بها - حيث لم ير أحدهم وهابيًّا واحداً. وأنني ما زلت على اعتقادي أن الوهابيين لا يقومون بعمل آخر بعد انتصارهم هذا. **ولابن سعود سيطرة تامة على رجاله، وهو أعقل من أن يضع نفسه في موضع يخطئ فيه معنا بمهاجمة الحجاز».**

فأجابني بقوله: «أن هذا لا يساعدنا مطلقاً يا مستر فيلبي، لأننا يجب أن نعمل بموجب المعلومات التي بعث بها إلينا الرجل الموجود هناك بالفعل، وأن الوهابيين بالنسبة لما عندنا من المعلومات ربما يكونوا الآن في مكة أو على أبواب جدة». فرددت على ذلك قائلاً: «أنه لنفرض أنهم يتقدمون الآن فإني معتقد بأنه من السهل علينا أن نقنعهم بالتوقف أو بالرجوع إلى خارج الحدود. فاستفهم بقوله «كيف؟» مع شيء من الحدة في نبرات صوته.

فكان جوابي: «أن القرار الذي اتخذ في اجتماع هذا المؤتمر الأخير يجب أن يُقلب قبل كل شيء، ويجب أن نوافق على أن يسمح لابن سعود بأن لا يأخذ الخرما فقط بل أن يأخذ التُربة أيضاً التي استولى عليها الآن والتي سوف لا يتنازل عنها. وأني أتكفل أنه سوف يكون مقتنعاً بذلك. فإذا وافقتم على ذلك فليس عليكم سوى أن تبعثوا رسولاً إليه، وسوف ينسحب عن الحجاز على وجه التأكيد».

فرد عليّ بقوله: «لكن الوقت أضيق من أن يسمح بإرسال أي أحد إليه، وربما يقوم الوهابيون الآن بذبح الناس في مكة وجدة».

فكان جوابي: «أن في وسع الكولونيل ويلسن أن يذهب لمواجهته

من جدة، أو أن طيارة يمكنها أن تأخذ رسولاً من هنا ليصل إلى هناك في ظرفية يوم واحد أو يومين».

وعند هذا أخذ يفكر عدة ثوانٍ ثم قال: «هل أنت مستعد للذهاب؟»، فقلت: «نعم سيدي، بكل تأكيد». ثم استفهم قائلاً: «متى تكون مستعدًّا للذهاب؟» فكان جوابي: «أنني مستعد للذهاب الآن». وعندئذٍ أجاب قائلاً: «أن هذا هو الأمل الوحيد، وإذا وافق المؤتمر سيقوم الميجر يونغ بإحضار الطائرة اللازمة لتأخذ المستر فيلبي في الحال. أتمنى لك الموفقية يا مستر فيلبي».

وبناء على هذا اتخذت الترتيبات اللازمة لتطير إحدى الطائرات يوم الجمعة إلى القاهرة أولاً حيث يتحتم عليّ مقابلة الجنرال اللنبي، الذي أصبح الآن مندوباً سامياً، للتزود بتعليمات أُخرى. وقد علمت خلال الفترة أن الجنرال اللنبي صدرت إليه التعليمات بإرسال سرب مؤلف من ست طائرات إلى جدة لاستخدامها إذا دعت الحاجة لذلك، كما أرسلت التعليمات إلى ويلسن في بغداد أن يبرق بوجوب قطع المنحة الشهرية عن ابن السعود. وقد سررت كثيراً بتبدل الحكم تبدلاً رسميًّا بشأن النزاع على الحدود بحيث لم أجد مجالاً للقلق من جراء هذه المشاكل الطفيفة التي يمكن أن تعالج فيما بعد، وبطبيعة الحال كنت مسروراً لفكرة عودتي إلى ابن سعود.

السفر إلى جدة

وقد رافقتني زوجتي إلي ليمين، غير أن الأمطار المدرارة حالت دون تحركنا بالطيارة يوم الجمعة. على أننا ذهبنا إلى المطار يوم السبت فوجدت إحدى طائرات «هاندلي پيج» التي صنعت سابقاً لقصف برلين، بانتظاري بقيادة طيارين كنديين، هما فينس وغراي، سألاني فيما إذا كنت أمانع محاولتهما أن يجعلا من السفرة سفرة ضرب الرقم القياسي في الطيران. فكان جوابي إليهما: «أنني كلما وصلت القاهرة ساعة أقدم كان ذلك أكثر فائدة إليّ»، وبذا حلقنا في الجو.

وبرغم الهبوط الاضطراري فيما يقرب من باريس وما ترتب على ذلك من التأخير ضربنا بسهولة الرقم القياسي السابق للكابتن مكلارن في رحلته بين انكلترة والقاهرة التي قطعها في خمسة عشر يوماً، لأننا قطعنا المسافة في مدة خمسة أيام (٣٦ ساعة طيران) عن طريق باريس وليون وايستر وبيزا وروما وتارانتو وباتراس وآثينة وخليج سودا (كريت) والسلوم. وبقي ذلك الرقم القياسي مدة سبع سنوات حتى سنة ١٩٢٦ حين قطع المسافة الكولونيل مينچن في ثلاثة أيام. ومنذ ذلك الحين حتى الآن حدثت بلا شك تطورات لا يستهان بها في هذا الشأن.

وقد أخبرت جميع المطارات قبل وصولنا برقيًّا بوجوب منح

الأقدمية إلى «ممثل من السلك الخارجي مسافر إلى القاهرة بمهمة رسمية مستعجلة»، ثم علمت في آثينة بوجود لورنس في خليج سودا مع بقايا محطمة لعدة طائرات من طراز «هاندلي بيج» كانت قد تركت انكلترة متوجهة إلى مصر في شهر نيسان. حيث أن طائرته كانت قد تحطمت بالقرب من روما فقتل في الحادث اثنان من الركاب، بينما انكسر عظم ترقوته هو وأصيب آخر إصابة خطيرة - أما الاثنان الباقيان من الركاب فقد خرجا من دون أذى. وبينما كان لورنس ينتظر مجيء طيارة تقله من محل انتظاره اغتنم الفرصة فقام بسياحة في جزر الأرخبيل في سفينة يونانية صغيرة. وعند وصوله إلى خليج سودا قُدمت إليه، فأخذني جانباً إلى صخرة تطل على الخليج الجميل ليبحث معي «مهمتي المستعجلة».

وقد كان يجهل تطورات الشؤون العربية الأخيرة فأنصت باهتمام زائد إلى روايتي التفصيلية عنها، معلقاً باستهزاء - لم يكن يود الشريف الحسين - وقائلاً بين حين وآخر «حسن، حسن» و«ممتاز». والظاهر أنه كان معجباً بمعلوماتي عن الشؤون العربية، لأنه التفت إليّ في الأخير قائلاً: «هل لي أن أسأل من أنت؟» فأجبته: «أنا آسف، كنت أتصور أنك تعرف من أنا - أنا فيلبي». فرد عليّ بقوله: «آه، أنت فيلبي، أليس كذلك؟» كأن نوراً أشرق عليه.

وكانت تلك مقابلتي الأولى مع لورنس، لكنني قُدّر لي أن أراه كثيراً بعد ذلك في السنين التالية طالما كان متصلاً بشؤون الجزيرة العربية.

وفي هذه المناسبة وافقت بسرور على اقتراحه بأن اصطحبه معي إلى القاهرة حيث بقي كلانا في «المقيمية» ضيفين من ضيوف اللنبي الذي كان مرافقه الأقدم يومذاك الكابتن هـ. ر. ل. ج. اليكساندر. وكانت الليدي اللنبي على مائدة الطعام، وعلى جانبيها لورنس وأنا، كثيراً ما

تستولي عليها الحدة بالنظر للمناقشات الحادة التي كانت تجري بيني وبين لورنس حول مزايا رجال العرب، بينما يهرع إليها اللنبي من طرف المائدة المقابل طالباً إليها تهدئتنا. وكان اللنبي في المناقشات الخطيرة التي تجري بيننا يقبل برأيي أن الطيارات التي أرسلت إلى جدة إذا قصفت الوهابيين واضطرت للنزول بينهم سوف يذبح الطيارون حتماً، وقد أصدر الأوامر العاجلة حتى بعدم إخراج الطيارات من صناديقها وشدها.

وكان أول خبر تلقيته في القاهرة بطبيعة الحال أن الوهابيين لم يحاولوا مطلقاً أن يعقبوا الجيش المنهزم إلى ما وراء تُرْبة، كما أن ابن سعود، الذي أوصى قواده باتخاذ موقف دفاعي بحت، قد سحب قواته إلى الرياض. وعلى هذا فإن الاستعجال في مهمتي قد تلاشت أهميته - فكان ذلك شيئاً مُرضياً جدًّا لي - ولم تقرر وزارة الخارجية إلا بعد مدة من الزمن أن أتابع سفري إلى جدة بالباخرة، وأن أعود من هناك إلى ابن سعود بطريق البر. وقد واجهت في الوقت نفسه الكولونيل هـ.ف. جاكوب غداة سفره إلى صنعاء. فسألته خلال حديثي معه عن أي نوع من اللباس سيرتدي خلال رحلته هذه، فأجاب بلهجة تكاد تكون جازمة: «البزة العسكرية كضابط و«جنتلمان» بريطاني، يا مستر فيلبي، ومع حاشية من الخيالة الهندية». فأجبته: «إذن فإنني أعتقد أنك سوف لا تصل صنعاء مطلقاً». فاستهزأ بمثل هذا الرأي، غير أنه لم يصل إلى هناك بتاتاً. حيث أن قبيلة قَهرَة وقفت في طريقه في باجل، وبعد حصار غير مريح دام عدة أسابيع سمح له بالعودة إلى الحديدة.

ولم أصل الرياض أنا أيضاً، لكن ذلك كان لسبب آخر غير هذا. لأن الباخرة عندما وصلت جدة أُخبرت أن الشريف الحسين، الذي استعاد روعه بعد الرعب الذي أصابه على أثر الحادث، أمر بكل عجرفة بمنعي من النزول إلى البر. وقد انقضت ثلاثة أيام في مفاوضات غير مجدية في هذا الشأن كان يقوم بها سي. أي. ويلسن بصورة تكاد تكون فاترة.

وعلى أثر ذلك صدرت إليّ التعليمات بالعودة إلى مصر فلندن. وبذا انتهت تلك المغامرة، برغم أنني كنت مغتبطاً لعلمي أن ابن سعود قد ربح الجولة الأولى في طريقه إلى زعامة الجزيرة العربية.

مع الأمير فيصل بن الحسين في لندن

وكان فيصل بن الحسين، في الوقت نفسه، قد نودي به ملكاً على سورية من قبل الجموع المحتشدة في الشام، كما رُشح أخوه عبدالله ملكاً مقبلاً للعراق فأزعج ذلك الشريف الحسين وأ. تي. ويلسن أشد الازعاج. لأن الشريف الحسين وجد أن سلطته أخذت تتقلص بازدياد عن طريق أعدائه وأبنائه الطامحين أيضاً. وبالنظر للتطورات الأخيرة حورت أزماعي على العودة إلى الهند، وفي تشرين الأول طلبت إليّ الحكومة أن أتولى شؤون البعثة التي طلبت ابن سعود إرسالها إلى انكلترة برئاسة ولده الأصغر فيصل، وكان الغرض منها اسميًا أن تقوم بتقديم التهاني للحكومة البريطانية بالنصر الذي أحرزه الحلفاء في الحرب، لكن الغرض الحقيقي منها كان استئناف المفاوضات حول وضعه المقبل وحول الحدود. فانشغلت بذلك مدة ثلاثة أشهر حتى حل عيد الميلاد، كما تجولت من أجل هذا في طول البلاد وعرضها بما في ذلك بلاد الغال وايرلندة، وفي القاهرة الأوروبية حيث زرنا جميع ميادين القتال. فزرنا بيرز وتجولنا بالسيارة فوصلنا إلى «شمن دي دام» و«فردون»، ومن هناك عبرنا إلى ستراسبورغ وكولوني، ثم انتهينا بباريس. وكان فيصل بن الحسين هناك، لكنه رفض جازماً ملاقاة من كان معي، ثم تركت البعثة باريس في آخر الأمر إلى مارسيليا في طريقها إلى الجزيرة العربية فعدت أنا إلى الوطن لقضاء عطلة عيد الميلاد مع أسرتي.

وفي أثناء اجتماع عقد في «وزارة الهند» برآسة ادوين مونتيغيو للبحث في شؤون أواسط الجزيرة العربية ذكر أحد موظفي الخزينة الكبار، على سبيل عرض الحقائق، أن منحة ابن سعود المالية كانت قد قطعت عنه بأمر من الحكومة منذ شهر أيار الماضي. فتحديت تصريحه هذا معلناً أنه برغم الأوامر التي صدرت من لندن بهذا المآل في أيار فإن المنحة استمر دفعها شهراً بشهر منذ ذلك التاريخ. فكان وقع ذلك شديداً على اللجنة، لكن القضية بقيت معلقة بانتظار إجراء التحقيقات فيها، وتسلمت في اليوم التالي كتاباً من غاربيت يطلب إليّ فيه بيان الأسس التي استندت عليها في تحدي تصريح «الخزينة» في هذا الشأن. فأجبت أن استنادي الوحيد هو معرفتي أن المنحة استمر دفعها دون انقطاع، ثم أضفت مبدياً أن استنادي هذا إذا لم يكن كافياً فإن فيصلاً وبعثته كان ما يزال في لندن وفي وسعه أن يصادق على مقدار الصحة في قولي. وكان ما قلته صحيحاً بطبيعة الحال، كما أن الحكومة قررت بحكمة وتعقل بالنسبة للظروف أن لا «توقظ الكلاب النائمة» وأن تستمر على الدفع لضمان سلامة الحسين - حيث أن الاستمرار على الدفع كان يعني هذا. ولم أكتشف ما وقع بالفعل في هذا الشأن إلا بعد مدة من الزمن. فإن برقية شهر أيار سُلمت إلى ويلسن شخصيًا عندما كان خارجاً من مكتبه للتمشي. فقرأها ثم طواها وأودعها في جيبه فضيّعها. وعند ويلسن براعة في التملص من الشؤون المعوجة ليتحاشى وقوع الاضطراب. ولم تتوصل الجهات المختصة إلى قرار نهائي بشأن مستقبل الخرما وتُربة، غير أن وضع «الأمر الواقع» لهاتين المنطقتين كجزء من ممتلكات ابن سعود لم يصبه أي تحد.

اضطراب الحالة في العراق

وكانت خططي ما تزال مشوشة حينذاك، لكنني كانت عندي أسباب وجيهة لتأخير عودتي إلى الهند. فإن الأحوال كانت تدل على أن العراق كان يتمخض بالحوادث الخطيرة التي كانت تضرم نيرانها آمال الوحدة التي كانت تختلج في نفوس الحزب الشريفي الموجود في سورية، وتغذية الملك فيصل بالمال، الذي كان يقبضه من بريطانية، لتلك العناصر الموجودة في العراق وعلى حدوه التي كان يعتمد عليها في إحداث أكثر ما يمكن من القلاقل لنا. كما أن حكم ويلسن الذي كان يزداد ديكتاتورية كان من العوامل المساعدة على ذلك أيضاً.

وكان يرأس الدائرة التابعة لوزارة الهند المختصة بهذه الشؤون وغيرها جون شكبرغ السكرتير المثالي في نظر كرزن. وقد كان حاضراً في المؤتمرات التي عقدت من أجل البت في قضية الخرما، كما سمحت لي الظروف أن أتصل به كثيراً بمناسبة بعثة فيصل السعود. وعندما انتهيت من هذه المهمة راجعته في نهاية كانون الأول، وقد أفضيت له أثناء تحدثي إليه بوجه عام بما يلي: «أنني في الحقيقة ليس في وسعي أن أفهم ما هو رأيكم أنتم هنا بشأن ما يجري في العراق. هلا ترون أن البلاد بأجمعها مقدمة على الثورة؟» فأجابني بقوله: «إن ما تقوله يا فيلبي لا يكاد يتفق إلا قليلاً مع التقارير التي تردنا من ويلسن، وعلى كلٍ فعلينا أن

نصدق الرجل المختص الموجود هناك. وإذا أعجبك الاطلاع على برقيته الأخيرة هذه فيمكنك أن تأتيني اليوم».

والحقيقة هي أن ويلسن كان قد تجول في جميع مناطق العراق بالطيارة في الأسابيع القلائل الأخيرة، وقد حياه الناس في كل مكان بحماس وتظاهر. فاقتنع بأن الأهالي كانوا يرغبون في الحكم البريطاني الحازم ويحتاجونه، بينما كان أولئك الذين كانوا يؤيدون مشاغبات الشريفيين عبارة عن شرذمة قليلة لا يُعتد بها. ولم يكن الوضع بحالة مُرضية منذ انتهاء الحرب حتى اليوم مثل ما هو عليه الآن. لكن شيئاً من الجهد يجب أن يبذل في «الوطن» لقمع الحملة الصحفية(١) التي تدعو إلى ترك البلاد والجلاء عنها. حيث أن عدم استقرار السياسة البريطانية له تأثير كبير على استقرار الأمور في العراق.

وبعد أن أتممت قراءة البرقية قلت له: «أنني أفهم جيداً أنكم يجب أن تهتموا بالرجل المختص هناك وتأخذوا بأقواله، لكن أموراً كهذه لا يمكن أن ينخدع بها أحد. حيث أن ويلسن يتعمد الاشتغال ضد روحية السياسة البريطانية المصرح بها لينهك الشعور الوطني الذي يُشجع الآن من سورية تشجيعاً تامًّا. وسوف لا ينتهي هذا الموضع إلا بحدوث اضطراب خطير، وليس ذلك علينا ببعيد».

وقد حدث بالصدفة أن غيرترودبيل كانت، برغم اشتغالها بمعية ويلسن، تبعث بانذارات مماثلة في كتبها الخصوصية إلى مونتيغيو وغيره، كما أن ويلسن طلب على الأخص، بعد مدة تقارب الشهر، استدعاءها إلى انكلترة بالنظر لمشاغباتها في بغداد.

وقد بدأت الثورة في مايس ١٩٢٠ بهجوم شنّه على تلعفر، الكائنة

---

(١) كانت الصحافة يومذاك تهاجم الحكومة طالبة الجلاء عن العراق ووضع حد للمصاريف الباهظة التي كان ينوء بها كاهل دافع الضريبة البريطاني.

بالقرب من الموصل، جميل المدفعي أحد ضباط الأمير فيصل الذين يُعتمد عليهم. فذبحت الحامية الصغيرة هناك عن آخرها. وانتشرت الثورة كالنار الهائجة في أسفل الفرات حيث نصب كمين لفوج من لواء مانجستر فأصيب بأضرار فادحة. ثم قتل ليجمن في خان النقطة. فبعث ويلسن يستقدم السيد طالب، الذي كان في عزلته في البصرة منذ عودته من منفاه خلال أيام الحرب ليعالج مرجل الفتنة الفائر في بغداد. فقمع الاضطراب بأسلوبه الخاص، وذلك بدخوله على الجمهور المحتشد في اجتماع وطني كبير وطلب إلى المجتمعين أن يفضوا إذا كانوا يرغبون في عدم طردهم عنوة من قبله[1]. وقد كانوا يعرفون السيد طالب من قبل كما كانوا يعرفون ماذا يعني بعمله هذا. وعلى هذا بقيت بغداد هادئة بينما كانت بقية البلاد تغلي بالمرجل. وفرّق جفريس الذي كانت بعهدته كوت العمارة مظاهرة وطنية بدزينة من المتشردين أستقدمهم من بغداد ليقلب التجمهر إلى حفلة موسيقية.

(١) سألنا كثيراً ممن رافق الحركة الوطنية في بغداد واطلع عليها عن هذا الحادث فلم يؤيده أحد، كما أننا لم نعثر على مثل هذا الخبر فيما كتب عن الموضوع من الكتب الأخرى. ولا يخفى أن المستر فيلبي من مؤيدي السيد طالب ومؤازريه كما سيتبين فيما يأتي من البحث.

عودة كوكس إلى بغداد

على أن هذه الحوادث أيقظت في الأخير «الوايت هول» من سباته المجامل. فاقتضى الأمر عمل شيء في الحال، واستُدعي كوكس من طهران فوراً للتداول معه في لندن. وفي طريقه إلى هناك تمكن من تطمين محدثيه في بغداد والبصرة أن الحكومة البريطانية سوف تُحسِن حقيقة إلى البلاد في هذه المرة إذا كان في وسعهم أن يتحلوا بالصبر إلى أن يعود. وكان قد تقرر قبل ذلك أن يترك ويلسن البلاد حالما يتمكن كوكس من العودة من لندن كمندوب سام لتطبيق ما في السياسة الجديدة، التي كانت تتكون خطوطها الرئيسية في الوايت هول، من تساهل وتحرر.

ففتحت هذه التطورات أفقاً جديداً بالنسبة إليّ. حيث واجهت كوكس حال وصوله لندن، فقبل بسرور معروضي بمساعدته في مهمته الجديدة. وقد تقرر أن يصحبه الميجر آر. أي. جيزمن كسكرتير شخصي، كما تقرر أن يذهب معه غاربيت أيضاً. وكانت هناك في الوقت نفسه شؤون كثيرة يؤمل تقريرها فيما يختص بالمستقبل. فضُغط على كوكس أن يتقبل فيصلاً ملكاً مقبلاً لعراق مستقل - حيث أنه تخاصم مع الإفرنسيين فأضاع عرشه السوري في حزيران - وفي وسعي أن أدعي بأن جزءاً من الفضل على الأقل في عدم تشجيعه على توريط نفسه بشيء قبل استفتاء أهالي العراق يعود إليّ. حيث أنني أحضرت مذكرة له حول هذا

الموضوع، وكذلك حول الخطوط الرئيسية التي يمكننا أن نسير على منوالها في إجراء انتخابات حرة من أجل جمع مجلس تأسيسي تكون مهمته وضع دستور البلاد المقبل وانتخاب رئيس للدولة إذا أريد ذلك، على أن نبدأ بحكومة نيابية مؤقتة. لأننا كنا قد وعدنا أن يكون العراق حرًّا في حل جميع المشاكل من هذا القبيل، وكانت مشورتي بأجمعها مبنية على رغبتي في أن أرى الجهات المختصة تبر بذلك الوعد بإخلاص.

ولم يكن عند كوكس تحيز خاص في صالح فيصل أو أي ملك شريفي غيره. وقد كنت مقتنعاً بأن أهالي العراق سوف لا يرغبون بعاهل على هذه الشاكلة. كما أن ويلسن أجرى من تلقاء نفسه استفتاءً شبه رسمي حول الموضوع منه تصويتاً ضد فيصل أو أي أحد من أخوته بنسبة ١٠٠٪. وفي منتصف آب تسلم كوكس كتاب تعليماته بشأن السياسة التي يتحتم عليه السير على منوالها، وفي ٢٠ آب ركبنا الباخرة «دلهي» أنا وجيزمن والليدي كوكس في معيته إلى بومبي، ومن هناك قصدنا بونا بزيارة قصيرة للحاكم السر جورج لويد. وفي طريقنا إلى خليج البصرة على ظهر الباخرة «لورنس» وقفنا في البحرين لنذهب بزورق بخاري إلى العجير حيث كان ينتظرنا ابن سعود الذي كان على موعد مع كوكس هناك للتداول معه في شؤون الجزيرة بوجه عام. وكان في ضمن حاشيته عدد من أصدقائي القدماء، ومن بينهم عبدالله الدملوجي[1]. وهناك جرت لي مع ابن سعود عدة محادثات خصوصية بالاضافة إلى الاجتماعات الرسمية التي حضرها هـ. ب. بي. ديكسن الذي كان يشتغل يومذاك كوكيل سياسي في البحرين بعد أن أخرجه ويلسن من العراق. وقد كان سير الجلسات على غاية ما يكون من الود والصداقة، كما كان ابن سعود الذي قلده

---

(١) كان معالي عبدالله الدملوجي يومذاك وزير خارجية ابن سعود.



الدكتور عبدالله الدملوجي
وزير خارجية نجد في ١٩٢٠

كوكس وسام جي.سي.آي. أي. على أبهى ما يكون في شكله. على أنني أنذرته على انفراد بأن يقضي على ابن رشيد ويمحوه من أواسط الجزيرة إذا كان يبغي أن يعد عاملاً مهماً فيما تحسبه بريطانية من الحساب. حيث أنني شرحت له أن ابن رشيد لا يزال عنده أصدقاء أقوياء يلتزمونه ويودون مسرورين أن يعيدوه بحيث يصبح عاملاً قويًا في حفظ توازن السياسة العربية عند الحاجة ضده هو وضد الشريف. وكان ابن سعود يعرف الحقيقة، كما كنت أعرف أنا، أن السيد حمزة غوث كان قد وصل بغداد مندوباً عن ابن رشيد وكان بلا شك يقوم بجميع التمهيدات مع غيرترودبيل. وعلى كل حال، لقد طمنني ابن سعود بأنه كان على علم بجميع دقائق الوضع الحاضر وإنني سوف أسمع إن شاء الله بمرور الزمن أخباراً سارة عن إكمال المشروع الذي كنا قد بدأنا به معاً.

في البصرة

وكانت في انتظارنا في البصرة تشكيلة كبيرة من الموظفين والوجهاء على رأسهم ل. تي. ويلسن، وأُقيمت في اليوم التالي حفلة بستانية عظيمة ليتسنى لكل أحد أن يقدم احتراماته إلى أول مندوبٍ سامٍ في العراق. وكان أبرز من في الحفلة شخصان، هما: الشيخ خزعلٌ بن مرداو[1] شيخ المحمرة الذي كان كوكس في أيام الحرب الأولى قد وعده باعتراف بريطانية بوضعه المستقل في عربستان والذي كان الآن أحد المرشحين لملوكية العراق، والسيد طالب النقيب منقذ بغداد الأخير الذي كان كوكس نفسه قد حكم عليه بالنفي[2] عن موطن آبائه مدة تقارب الخمس سنوات، والذي كان يطمع الآن بصورة جازمة بملوكية العراق.

وفي ذلك المساء أقام السيد طالب حفلة استقبال فخمة في قصره المطل على الشط[3]، على شرف كوكس، حضر فيها عدد كبير من

---

(١) إن والد الشيخ خزعل هو الحاج جابر بن مرداو.

(٢) إنه يشير إلى نفي السيد طالب عند أول وصول الإنكليز البصرة أيام الحرب حتى سمح بالعودة بعد انتهائها.

(٣) في السبيليات.

الوجهاء والموظفين البريطانيين الكبار، وفيها اقترفت غلطة بسهو مني. إذ بينما كنا نبحث في شؤون الكويت انتقدت الأسرة المالكة فيها على أساس أن اثنين من حكامها الأخيرين تسنما الحكم بعد قتل أخويهما وقارنت هذا الوضع بالخصومة الأخوية التي كان لها تأثير سيء في تاريخ أسرة آل الرشيد. ولم أكن أعلم يومذاك أن الشيخ خزعل أيضاً كان قد قتل أخاه الأكبر ليغتصب عرشه!

وفي صباح اليوم التالي اصطف حرس الشرف على رصيف الميناء لآخر مرة في توديع ويلسن الذي استقل الباخرة «لورنس» إلى الهند. وقد جرى لي حديث معه قبل الرحيل فوجدته مستاءاً استياءاً مراً من سير الأمور بوجه عام ومن نظام الحكم الجديد المقترح على الأخص، حيث أن ذلك كان يعني انتهاء أحلامه المزوقة عن العراق كدرة لامعة في التاج البريطاني. وفي الأخير كان الأسف يغمرني عندما رأيته يرحل. حيث أن مزاياه العظيمة التي لا مناقشة فيها قد تبددت من أجل انحرافٍ بالٍ في الرأي، وأن البناء الذي حاول تشييده قد انهار فأصبح أنقاضاً بالية على مسمع منه. والخيبة من هذا القبيل لا سبيل إلى الرحمة فيها. وكان يومئذ في السادسة والثلاثين من عمره، وقد قُدّر له أن يتسنم مناصب مهمة في «شركة النفط الإنكليزية - الايرانية» في الوطن والخارج قبل أن يصبح عضواً نشيطاً غير مؤثر من أعضاء البرلمان المحافظين. إلا أنه لم يحقق الآمال التي كانت معقودة عليه في أوائل العقد الثالث من عمره[١].

(١) وقد توفي في الحرب العالمية الثانية بعد أن تطوع جنديًا في سلاح الطيران البريطاني وسقطت به الطائرة في سماء لندن.

مطامع السيد طالب النقيب

وبعد ذلك ركب كوكس وعقيلته، وفي معيتهما چيزمن وأنا والسيد طالب أيضاً، في «مركب» نهري إلى الكوت. ومن هناك أكملت السفرة بقاطرة خاصة من قاطرات الخط الحديدي الجديد[1]. وقد كنا خلال الطريق منهمكين بالأوراق والمناقشات، وبذا كانت الرحلة فريدة في بابها. وقد جرت لي في هذا الأثناء بعض الأحاديث الخصوصية مع السيد طالب - كنت تعرفت عليه في الاسكندرية من قبل - فأسرّني خلالها ببعض من مطامعه البعيدة. وكان هدفه الصريح بطبيعة الحال أن يحصل على التاج العراقي، لكنه قبل كل شيء كان في نفسه أن يصبح أميراً من أمراء الممتلكات البريطانية، ولم يكن يفهم لماذا لا ينعم الملك جورج الخامس عليه بالامارة إذا كان في وسع الشريف الحسين أن يضع الأمراء من آل لطف الله اللبنانيين! على أني لم أفشِ الأسرار التي ائتمنني بها إلى أي أحد وخاصة إلى كوكس، لكنني لم أشجعه على مطمعيه هذين يومذاك وبعد ذلك بكل تبصر وروية.

والحقيقة هي أنني كان لي أمل كبير في مستقبله. حيث كان من

(١) كانت الكوت قد ربطت ببغداد في الحرب العالمية الأولى بسكة حديد لأغراض عسكرية.

الواضح أنه كان أبرز شخصية في العراق، في الذكاء وقوة الشخصية، لكنه كان على جانب كبير من الطيش والغرور ولذا كان مرهوب الجانب عند الناس ومكروهاً من معظمهم. وإذا كان في الامكان الاستفادة من مزاياه الحميدة واستخدامها استخداماً تامًّا فإني كنت أتكهن له أن دوره سيكون إدارة مصائر العراق المستقل لعدة سنوات تأتي في أرجح المناصب التي تحتمها الظروف والأحوال - كمنصب رئيس وزارة مثلاً أو رئيس جمهورية. ومنذ ذلك الحين أخذت أدرّبه على الاضطلاع بأحد هذين الدورين، ويجب عليّ أن أعترف هنا أنه كان تلميذاً ذا أهلية وقابلية بشرط أن تكون اليد التي تدربه فيها شيء قليل من الود والصداقة. وربما كنا قد نجحنا معه لولا أن تقف في سبيل ذلك بعض الظروف الخاصة التي سوف أبيّن شيئاً أكثر منها في سياق هذا الموضوع.

تشكيل الحكومة المؤقتة

وقد عزفت في محطة «جنوبي بغداد» الفرقة الموسيقية نشيد «أنقذ الله الملك» عندما وقف القطار ووقف على منصة صالونه السر بيرسي بزته البيضاء يؤدي التحية. ثم أعقب ذلك توارد المستقبلين[1] للتحية - الجنرال مارشال، فالسر أيدغار بونهام كارتر وكثير غيرهما، ولم تكن أقلهم شأناً غيرترود بيل ببدلتها الباريسية الجديدة وهي تبدي من ضروب المجاملة والتلطف أعمقها. وكان نقيب بغداد المتقدم في السن السيد عبد الرحمن القادري، بعمره الذي ينوف على السبعين وبهزاله برغم ضخامته، على رأس جمهور الوجهاء الذين وقف السيد طالب مختالاً

---

(١) تقول المس بيل في رسالتها من بغداد المؤرخة في يوم الأحد ١٧ تشرين الأول ١٩٢٠ أن المستقبلين كان بينهم ٢٠-٣٠ من وجوه بغداد، وكان من جملة هؤلاء الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي ألقى بين يدي كوكس خطاباً ترحيبيًّا بعد الانتهاء من تقديم المستقبلين له. وقد رد السر بيرسي كوكس عليه بالعربية، فكان نص الكلمة التي ألقاها، بحسب ما نشرت في الجرائد، كما يلي: «أن دولة بريطانية أرسلتني للمساعدة والاتفاق مع أشراف ورؤساء العراق لنحصل على الغاية المطلوبة للطرفين وتأليف الحكومة العربية حكومة مستقلة بنظارة انكلترة. ولقد جئت لهذه المقاصد لكن مازال الاغتشاش مستمرًّا طبعاً لا يمكن العمل، وأنا حاضر عندما تحصل الفرصة وهذا شيء بيدكم».

بينهم ليتقبل نصيبه من واجبات الطاعة. وكان كل شيء مؤثراً جدًّا، فاتضح أن العهد الجديد يتأهب للبدء بداية حسنة برغم أن اعتراضات كثيرة أثارها بعد ذلك أناس[١] ذوو أهمية حول تعقيد السلطات المختصة في تقديمهم إلى المندوب السامي بالفعل - حتى أن قسماً منهم لم يستطيعوا الدخول إلى المحطة بالنظر لازدحام الناس في خارجها.

وبمثل هذا احتفلت بغداد بفجر عهد السلم الجديد وعهد الحرية والرخاء، بينما كانت جمار الثورة لا تزال تتقد في الأنحاء اتقاداً نِكداً. حيث أن الثورة كانت قد كسرت شوكتها بدرجة لا يستهان بها، غير أن عمليات التطهير تطاولت خلال أشهر متثاقلة بعد ذلك. فلم يُلتفت إلى اقتراحي بإعلان الهدنة والأمان. لأن السلطات العسكرية و«شبان» ويلسن، وعلى رأسهم ايفلين هاوِل آخر الرؤساء الرجعيين - الذين تحملوا بالطبع وزر اليوم وحرارته وتعرضوا لمهانات لا يمكن أن تنسى - كانوا يطالبون بحصتهم من الدم. وشعر كوكس أنه يجب أن يذعن بهذا المقدار إلى ضغطهم عليه.

وقد باشرنا من غير تأخير بواجب تأليف وزارة الحكومة المؤقتة التي ستأخذ على عاتقها ادارة البلاد باشراف كوكس. وكان بونهام كارتر، أحد المعتمدين العدليين، قد قطع شوطاً بعيداً في إحضار لائحة لقانون الانتخابات مبنية على الطريقة التركية في الانتخابات الأولية

---

(١) وها ما تقوله المس بيل في رسالتها المشار إليها أخيراً في هذا الشأن: «...وما وصلت لمكتبي حتى بدأ سيل الرسائل والزوار يتوافد علي، وكل منهم متزعج أكثر من الآخر، مبدين أن المدينة مستاءة كلها من تشريفات الاستقبال لأن الوجهاء دعوا وحشروا إلا قليلاً منهم في الغبار خارج ردهة الاستقبال، حتى أنهم لم تتهيأ لهم الفرصة لمصافحة السر بيرسي. وقد قال لي شيخ هرم من الشيوخ البارزين وهو يحتدم غضباً «إننا جئنا بحب وطاعة، وعندما حاولنا الاقتراب من فخامته دفعنا جانباً». وقد عومل بهذه المعاملة حتى أخوة النقيب».

والثانوية، فكانت جاهزة في نهاية السنة لعرضها على مجلس الوزراء. وكان، في الوقت نفسه، واجب انتقاء الأعضاء اللائقين للوزارة، وهو واجب غير سهل على الإطلاق، قد أشغل السر بيرسي كوكس مشغولية تامة. حيث كان منهمكاً يوماً بعد يوم وعلى طول الأيام بمواجهة المرشحين الذين يمكن أن يقع اختياره عليهم وأخذ المشورة والرأي من أناس يمثلون جميع مناحي الحياة، الرسمية وغير الرسمية، بينما كنت أنا[1] وغيرترود بيل نقوم بكثير من الأعمال التي تمهد له السبيل بزيارة المرشحين للوزارة وغيرهم، ومن بينهم عبد القادر باشا الخضيري رجل بغداد الشيخ الذي لم تكن له مطامع سياسية مع أنه كان يعرف نبض البلاد كطبيب ذي خبرة. فأصبح صديقي الشخصي في المدينة، فما كان أعظمه رجلاً. حيث أنه كان الوحيد من بين مواطني بغداد الذي جازف في تحدي نقمة الأتراك بذهابه إلى الرصيف في توديع البريطانيين الذكور الذين اعتُقلوا وُسفّروا إلى أفيمون قره حصار في بداية الحرب. ثم استمر على النظر في راحة النساء الذين تركوا في المدينة. وقد بعث رجاله يوماً، بعد أن استُنجد به، لينقذ امرأة إنكليزية من عبث أحد الضباط الألمان. وكان يحيا حياة غريبة الأطوار عائشاً في قصره المطل على دجلة. حيث أنه كان ينزل سلم قصره صبيحة كل يوم، في الشتاء

---

(١) وفي الرسالة نفسها تقول المس بيل ما يلي:

«. . . وأن فرائصي لترتعد عندما أتصور ما كان يمكن أن يحدث لو لم نبادر بمعالجة الوضع عاجلاً، حيث لم يكن يوجد ولا شخص واحد من أصحاب السلطة يفكر بالناحية التي تختص بالعرب من الأمر في الوقت الذي كان من المهم جدًّا أن يتصل السر بيرسي اتصالاً شخصيًّا عاجلاً بوجوه البلد. وقد تعشى المستر فيلبي معي تلك الليلة فجرى بيني وبينه حديث طويل مفيد. كما كان قد تناول الشاي معي أيضاً فدبرت حضور ساسون أفندي ليتعرف به فكان ذلك على جانب عظيم من الفائدة، حيث أن ساسون أفندي من أعقل الناس هنا، وقد استعرض معنا الوضع بكامله بحكمته المعتادة وباعتداله المعهود».

والصيف، فيستحم في النهر قبل أن يقصد مكتبه في السوق حيث يشتغل طيلة النهار من غير أن يتناول شيئاً سوى شطيرة من الطعام وفنجانين من القهوة التركية حتى يحين المساء فيعود إلى بيته ويبدأ بتقشيش اللوز والفستق، وقدح العرق أمامه، وهو جالس في شرفته المطلة على النهر وحيداً أو مع بعض الأصدقاء. ونادراً ما كان يهتم بطعام العشاء الفاخر الذي كان يُعد له على الدوام إلا عندما كان يقصده بعض الضيوف أو الزوار. وسواء وجد في مجلس الزوار أو لم يوجدوا كان خَدَمه يحملونه كل ليلة إلى فراشه وهو لا يعي من السكر. وكان يحمل بين جنبيه أنبل وأنقى نفسية في بغداد.

وكانت غيرترود بيل قد ركزت نفسها منذ مدة طويلة، مع خادم أمين استخدمته عندها منذ أيامها الخالية في سورية، في «فيلا»[1] صغيرة مبهجة تقع في وسط بستان بديعة ملأى بالزهور أصبحت تعرف بين المتحللين باسم «مرتع العزوبة» فأصبحت هذه الدار بسرعة مركزاً معترفاً به لشبكة واسعة النطاق من الدس السياسي الذي يشمل البلاد بأجمعها، وما كان أكثر الساعات المبهجة التي قضيتها هناك معها هي وضيوفها من العرب متحسساً نبض الرأي العام وشاعراً بالحركات والميول في مجتمع من أشد المجتمعات تعلقاً بالسياسة في العالم. وكانت غيرترود بيل وأنا بمقام مجسّتي السر بيرسي كوكس نسبر الجو الذي لا يمكن أن يجس وراء أمائر الزمن ودلائله. وكنا ثلاثتنا نشتغل بانسجام تام ووحدة متناهية كفرقة واحدة نذرت نفسها لواجب واحد - وهو أن نشكل في بغداد حكومة موقتة تحظى بقبول الجميع ومصادقتهم عليها.

---

(١) كانت الدار مبنية في قطعة بستان صغيرة تعود للمرحوم موسى الباجه جي، كما كان موقعها مقابل جامع السيد سليمان النقيب في السنك وفي جوار بناية مدرسة الرصافة المتوسطة الحالية.

على أن تلك المهمة لم تكن شيئاً يسيراً كما يتبادر إلى السامع. فقد كان هناك شخصان فقط يليقان لاشغال المنصبين اللذين خُصصا لهما في النتيجة. فكان أحدهما ساسون أفندي، وهو تاجر يهودي بارز من تجار بغداد كانت لياقته واضحة للعيان لمنصب وزير المالية. وكان الآخر جعفر باشا العسكري، الذي حارب ببسالة مع الفريقين خلال الحرب وحصل على وسام الصليب الحديدي ووسام سي. أيم. جي. كما كان أحد قواد[١] فيصل البارزين. وكفرد من سكان بغداد كان قد عاد إلى وطنه، لم يكن في وسع أحد أن يتحداه في طلبه منصب وزير الدفاع. وكان هناك قائد آخر من قواد فيصل، من أهالي بغداد أيضاً، لم يكن قد وصل بغداد بعد لكنه كان من المتوقع أن يصل عاجلاً. وهو نوري باشا السعيد[٢] الذي رشح مقدماً لمنصب رئاسة أركان الجيش العراقي - أي القائد العام فعليًّا. وكان هناك رجل صالح تمام الصلاح يليق لمنصب وزير العدلية وهو الرجل المتعلم الشيخ مصطفى الألوسي، بينما كان هناك عدد كبير من المرشحين لوزارات المعارف والصحة العامة والأشغال العامة وما أشبه ممن يمكن أن يجري الانتقاء من بينهم من دون أي محذور سياسي

(١) كان قائد جيوش فيصل العام.

(٢) وهناك ما تقوله المس بيل في رسالتها المؤرخة في ٢٤ شباط ١٩٢١ حول نوري باشا: «...لقد شهد الأسبوع الماضي وصول عنصر جديد لأول مرة، حيث أن الضباط العراقيين الذين كانوا في سورية أخذوا يعودون، وأول من وصل منهم نوري السعيد صهر جعفر باشا الذي وصل في الأسبوع الماضي... وفي اليوم الذي تلى وصوله خابرني جعفر بالتلفون وسألني متى يستطيع نوري مواجهة السر بيرسي. فطلب إليهما السر بيرسي أن يأتيا في الحال ويبقيا لتناول الغداء معه. وقد جاءا في الثانية عشرة فجلسا معي ساعة واحدة. ثم استدعيت الكابتن كلايتن الذي كان يعرف نوري في سورية ويوده، وكذلك مر بنا الميجر موري فجرى بين الجميع حديث خطير. وفي اللحظة التي رأيت نوري فيها أدركت أن أمامنا قوة قاهرة سهلة الانقياد وعلينا إما أن نستخدمها أو نشتبك معها في صراع شاق...».

لأننا كان في نيتنا أن نضيف إلى مجلس الوزراء عدداً من الوزراء بلا وزارة لأجل أن نشرك في الحكم عدداً من الشخصيات المهمة الذين لا يمكن أن يوضعوا بشكل آخر.

إلا أن العقدة في تشكيل الوزارة كانت مركّزة في رئاسة مجلس الوزراء وفي وزارة الداخلية. حيث أن السيد طالب بالنسبة لمزاياه كان أبرز من يستطيع إشغال المنصبين، لأن الداخلية كانت الوزارة الحيوية وبالامكان دمجها بالرئاسة من غير محذور. ولو كنا اتخذنا هذه الخطوة لكان من الواضح أن يرشح السيد طالب مقدماً رئيساً مقبلاً للدولة مهما كان الاسم الذي كان سيُقرر لهذه الرئاسة - وربما كان سيكون رئيساً للجمهورية لأن الشعور العام في العراق كان يومذاك ميال بصورة جازمة إلى الجمهورية[1] وضد الملكية، ما خلا عدد من الأتباع المهمين الذين كانوا يؤيدون الدعوة الشريفية.

غير أن غيرترود بيل تكره السيد طالب كما تكره السم، بينما كان السر پيرسي كوكس لا يأتمنه ولا يميل إليه بوجه عام. على أن الاثنين اتفقا على أن يكون من بين الوزراء وأن يشغل وزارة مهمة، وبذا لم يكن

(١) كانت هذه مجرد فكرة نشأت عند أناس معدودين فقط، وأن ما توصلنا إليه في الرجوع إلى كثير من المصادر يشير إلى أن أكثرية الطبقات كانت راغبة في الملوكية لأحد أنجال الشريف. ويقول السيد عبد الرزاق الحسني في النص (٢٠٦) من كتاب (العراق في دوري الاحتلال والانتداب) ج١ ما يلي: «. . . فإن المستر فيلبي مستشار وزارة الداخلية سابقاً. . . كان أول من قال وجاهر بفكرة الجمهورية في العراق، وقد تمكن أن يجمع حوله بعض الشخصيات البارزة في العراق كالمرحوم توفيق بك الخالدي والشيخ سالم الخيون والسيد محمود النقيب وعبد المجيد الشاوي وفخر الدين جميل وغيرهم من رجال الحزب العراقي الحر الذي ألفه النقيب في بغداد ليسند وزارته والذين كان يؤثر عليهم المستر فيلبي. وقد أخمدت هذه الفكرة كل الأخماد بحمل المستر فيلبي على اعتزال منصبه. . .».

من الصعب على المرء أن يرى أن المنصب الوحيد الذي يقبل به هو منصب وزير الداخلية. ولم ألح أنا من جهتي على تعيينه للرئاسة، لعلمي بأنه كان ثمة رجل واحد فقط يقبل السيد طالب الاشتغال برئاسته، ولعلمي أيضاً أن السيد عبد الرحمن النقيب بشيخوخته كان عزوفاً[1] عن الاضطلاع بمثل هذه المسؤولية. وقد كنت على اتصال دائم بالسيد طالب مشيراً عليه بالصبر وموصياً إياه بالاذعان لخطط كوكس من أجل أن يتم تشكيل الحكومة المؤقتة التي سيكون هو فيها، على كل حال، الشخصية المهيمنة كوزير للداخلية. وفي الأخير تم كل شيء، فعقدنا كوكس وغيرترود وأنا مجلساً نهائيًّا لنقرر وضع كل شيء في موضع التنفيذ. فذهب كوكس وحده لزيارة النقيب قاصداً تكليفه بتشكيل الحكومة المؤقتة، وبقيت أنا وغيرترود في مكتبه منتظرين نتيجة المواجهة. وعندما عاد كوكس إلينا خاطبنا بكلمات مختصرة مفيدة تنم عن ارتياحه قائلاً: «لقد قَبل»، فطفح البشر من أوجهنا كلنا لهذه النتيجة السارة التي تكللت بها مساعينا[2].

---

(١) وقد جاء في رسالة المس بيل المشار إليها من قبل في هذا الشأن ما يلي: «. . .وإذا رفض النقيب أن يخطو إلى الأمام ويسد الثغرة الحاصلة فإن وجه الخيار الوحيد الذي أراه هو أن يضطلع السر بيرسي نفسه بالمهمة (تأليف الوزارة المؤقتة) فيدعو أعضاء الوزارة المؤقتة ويعينهم. والمعتدلون أنفسهم هم الذين يفكرون بهذه الفكرة الآن، حيث أن فخري جميل اقترح ذلك عليَّ صبيحة هذا اليوم. ولست بحاجة أن أقول بأني رحبت بها مبدية غاية التعجب والاهتمام لأني أريد أن يأتي كل شيء من عندهم لا من عندنا. . .».

(٢) لقد تشكلت الحكومة المؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وعضوية الذوات التالية أسماؤهم (مع حفظ الألقاب): السيد طالب النقيب للداخلية وساسون حسقيل للمالية والسيد مصطفى الألوسي للعدلية وجعفر العسكري للدفاع وعزت الكركوكي للأشغال وعبد اللطيف المنديل للتجارة والسيد محمد مهدي الطباطبائي للصحة والمعارف ومحمد علي فاضل للأوقاف. أما وزارة الدولة (بلا وزارة) فقد كانوا: =

ولما كنت، في الوقت نفسه، على اتصال وثيق بكوكس كنت قد وضعت مسودة خطة للجهاز الاستشاري المزمع تنفيذه تتناول الإدارة الحكومية بكاملها من الوزارات إلى المناطق والنواحي. وكان ويلسن قد جنّد لهذا الجهاز، فضلاً عن الموظفين الكبار في المركز، ما لا يقل عن (١٣٠) ضابطاً إداريًّا بريطانيًّا يجب أن يتخلوا الآن عن مناصبهم إلى المتصرفين والقائمقامين ومديري النواحي العرب. وسوف لا تدعو الحاجة إلا إلى عدد قليل من هؤلاء الموظفين البريطانيين ليصبحوا مستشارين ومساعدي مستشارين للموظفين الوطنيين، وعلى هذا فقد أنقصت عددهم من (١٣٠) إلى (٣٠) فقط، وبعد استشارات ومداولات أخرى رُفع العدد إلى (٤٠). أما البقية فقد تحتم عليهم أن يتركوا البلاد، وقد دبرنا لهم طريقة سخية بدفع الاكراميات النهائية إليهم لأجل أن يتسنى لهم تدبير شؤونهم حتى يمكن إيجاد وظائف أخرى لهم. وأذكر بهذه المناسبة أنني أصررت على وجوب إعادة ديكسن إلى العراق، وعلى إخراج الكابتن سي. كي. ديلي أحد رجال ويلسن الجفاة من الخدمة في البلاد.

ووجب أخيراً أن نباشر بإملاء المستشاريات الوزارية، فعقد كوكس عدة اجتماعات لهذا الغرض. فكان بونهام كارتر، وهو أقدم موظف كبير في معية المندوب السامي على الاطلاق، لائقاً بوضوح لمستشارية العدلية، ويضاهيه في ذلك لياقةً لمستشارية المالية أ. هـ. سليتر. وقد كان سليتر شديد الحيوية واداريًّا مقتدراً وطموحاً جدًّا. وفوق ذلك كله كان يرغب بالاحتفاظ بمستشارية الداخلية لنفسه، ولذا اقترح بجرأة أن

= عبد الرحمن الحيدري وعبد الجبار الخياط وفخر الدين جميل والحاج عبد الغني كبة والشيخ عجيل السمرمد وعبد المجيد الشاوي والشيخ محمد الصيهود وداود اليوسفاني والشيخ سالم الخيون وأحمد الصانع والشيخ ضاري السعدون والحاج نجم البدراوي.

أكون أنا مستشاراً للأشغال العامة. فقابلت الاقتراح بصخب غير لائق، فخُصصت تلك المستشارية إلى الجنرال سنت جون أتكنسن الذي كان مديراً عاماً للأشغال العامة في عهد ويلسن وكان أليق رجل للمنصب الجديد هذا. ثم أصبح لايونيل سميث مستشاراً للمعارف، كما خصصت المستشاريات المختلفة الأخرى من غير صعوبة تذكر حتى بقيت مستشارية الداخلية وحدها شاغرة ووجب أن يشغلها أحد مرشَحين هما أنا وغاربيت الذي جاء إلى العراق ليكون السكرتير الأول للمندوب السامي. وكان المقرر أن يكون هذا المنصب مساوياً لمنصب المستشارية الوزارية، وعلى هذا كان لدينا في الحقيقة منصبان ومرشحان لهما. وكان سليتر لا يرغب أن أكون في الداخلية مهما كلف الأمر فرشح غاربيت لها.

فالتفت إليّ كوكس قائلاً: «أي منصب ترجح أنت؟» فأجبته: «أنني في خدمتك بالكلية يا سيدي». وعندئذٍ أجابني بقوله: «أشكرك يا فيلبي، أني أقدر ذلك». وعلى هذا أصبحت مستشاراً للداخلية كما أصبح السيد طالب وزيري.

ثم حاول سليتر أن يلعب لعبة أخرى فاقترح أن يتقاضى هو وبونهام كارتر راتباً شهريًا قدره (٣٠٠٠) روبية بينما يجب أن يتقاضى جميع المستشارين الآخرين (٢٥٠٠) روبية. فاعترضت على ذلك لأنني مع عدم وجود مصلحة خاصة لي بالمبلغ الذي تقرر إعطاؤه كنت أعتقد أنه من الضروري أن يتقاضى جميع المستشارين نفس الراتب فنجح اعتراضي - حيث تقرر أن يكون الراتب الشهري للجميع أقل المبلغين المذكورين.

إعلان الحكومة المؤقتة

وبذا أصبح كل شيء جاهزاً لإصدار البيان الذي يعلن عن إدخال الترتيبات الجديدة التي وضعتُ مسودتها أنا ووقعها كوكس. وقد حضر هو جلسة مجلس الوزراء التدشينية التي حضر فيها جميع الوزراء والمستشارين يترأسهم سماحة النقيب. وعلى هذا انصرفت الحكومة المؤقتة إلى عملها الذي كان يتمركز، بالاضافة إلى بحث مشاكل الإدارة اليومية، لدرجة كبيرة في البحث في لائحة قانون الانتخاب. فكان ثمة كثير من المناقشات وتضارب الآراء حول هذا الوضوع وغيره، لكن الأمور سارت سيراً سمحاً بوجه عام. ولم يجد السيد طالب، وهو الوزير المهيمن، أية صعوبة في أخذ أحسن شقق السراي لوزارته، وكان ذلك يعني أنني أيضاً حصلت على غرفة واسعة مريحة في جوار غرفته وتتصل بها بباب موصل خاص، بينما خصصت له غرفة واسعة أخرى بالاضافة إلى غرفة مكتبه كان يستضيف فيها جميع الأشخاص المهمين الذين كانوا يقصدون زيارته في ساعات النهار المناسبة على غدائه الكثير الفاخر الذي كان يرسل إليه يوميًّا من مطبخ بيته.

وقد جاءني جعفر باشا العسكري يوماً يشكو، والدموع في عيونه لأنه كان رجلاً حساساً شديد العصبية، من حشره هو ومستشاره الكولونيل

أيدي في غرفة تشابه الاصطبل ليس فيها الأثاث الذي يليق بالمكتب. ألم يكن هو وزيراً للدفاع مع لا شيء يدافع به ولا شيء يدافع عنه لأن القوة العسكرية الوحيدة التي لها وزن في البلاد كانت قوة الشبانة العربية ذات الضباط البريطانيين برئاسة الكولونيل بويل، التي كانت يومذاك تحت إشراف المندوب السامي المباشر بانتظار انتقالها إلى عهدة وزارة الداخلية التي كانت تتبع إليها بطبيعة الحال قوة الشرطة بقيادة الكولونيل پريسكوت؟ مسكين جعفر! أنه كان يسلك أحياناً سلوك الطفل الفاسد، لأن الذنب لم يكن ذنبنا في عدم تشكيل جيشه حتى ذلك الحين. حيث أن مستقبل الشبانة - وكان نصفها عربيًّا ونصفها كرديًّا - كانت مشكلة تثير كثيراً من التضارب في الرأي، وكذلك كانت المناطق الكردية الواقعة في شمال العراق التي كان يديرها على حدة ضباط بريطانيون مربوطون بالمندوب السامي بانتظار النظر في وضعها المقبل وعلاقته بحكومة العراق التي سوف تظهر للوجود بعد أن يلتئم المجلس التأسيسي ويقرر شكلها النهائي.

ولا يسعنا هنا البحث بالتفصيل في أتعاب الإدارة التي أخذت تتزايد. ويكفي أن نقول أن قانون الانتخاب بشكله النهائي قد حظي بعد مدة طويلة بمصادقة حكومة النقيب ثم رُفع إلى المندوب السامي لنشره بعد المصادقة عليه. على أنه في الحقيقة لم يُنشر، وقد حالت دون نشره تعقدات غير متوقعة. فبينما كنا نجاهد بكل قوانا من أجل وضع سياسة حكومة صاحب الجلالة، التي تقرر العمل بها في شهر آب، في موضع التنفيذ كانت قوى أخرى تعمل عملها في «الوايت هول» البعيدة عنا لتشوه تلك السياسة تشويهاً غريباً. حيث أن المستر ونستن تشرشل أصبح وزيراً للمستعمرات، وقد أخذ على عاتقه إعادة النظر في جميع وعود الحكومة وتورطها في شؤون الشرق الأوسط لحل مشاكلها من جديد. وكان قد

دعا لورنس ليكون «صديقه الأمين»، وكان لورنس عازماً على أن يضرب ضربة باطشة أخيرة من أجل صديقة الأمير فيصل الذي كان منزوياً في إيطاليا يومذاك، سواء كانت هناك وعود أو لم تكن.

مؤتمر القاهرة

وقد أخبرني كوكس في أحد الأيام أن تشرشل اقترح عقد مؤتمر كبير شامل في القاهرة للبحث في جميع مشاكل الشرق الأوسط واستصدار القرارات اللازمة بشأنها. على أنه طمنني أن ذلك سوف لا يستدعي إحداث تبدل جوهري في خططنا المختصة بالعراق، لكن قانون الانتخاب يجب أن يؤجل أمره إلى حين عودته. على أن تشكيل الوفد[1] من الشخصيات التي أخذها معه كان شيئاً ينذر بالشؤم - غير ترودبيل وغاربيت وجعفر باشا. فكان كل أحد يشعر أن شيئاً خطيراً كان على وشك أن يحدث، ففوجئ كل من بونهام كارتر، وكيل كوكس، وأنا بسيل من الاستفسارات المتلهفة التي كان كلانا يجيب عليها بصدق وأمانة، أن الحكومة البريطانية كانت قد وعدت وعداً قاطعاً بأن أهالي العراق يجب أن يقرروا مصيرهم بحرية وأننا لا نعلم شيئاً عن أية نية في تحوير ذلك الوعد. وكان السيد طالب مهتاجاً من القلق، وحتى النقيب

(١) كان الذين حضروا مؤتمر القاهرة عن العراق، على حد قول المس بيل الذوات التالية أسماؤهم: السر بيرسي كوكس، جعفر باشا العسكري، ساسون أفندي، المس غيرترودبيل، السر أيلمر هولدين القائد العام في العراق، أمير اللواء الركن أي. اتكنسن مستشار وزارة الأشغال، والعقيد س. سليتر مستشار المالية.

الشيخ كان متكدراً بخطورة. وبعد ذلك وردت من جعفر باشا كتب خالية من التبصر إلى مشايعيه في بغداد تفيد بأن كل شيء كان يسير على ما يرام بالنسبة لما يبتغونه، فانتشرت الأخبار في المدينة كما تنتشر النار الهائجة. وعندئذٍ أخذ كل من النقيب والسيد طالب يساوره الريب بأنني كنت أعرف أموراً أكثر مما كنت أبوح بها، وأنني مع بونهام كارتر كنا ندبر شيئاً من قبيل المؤامرة. وفي معمعان هذه الظروف كتبت مذكرة طويلة إلى بونهام كارتر لخصت فيها الشائعات التي طرقت سمعي وذكرت فيها بصورة قاطعة أنني أجد نفسي مجبراً على الاستقالة احتجاجاً إذا كانت الوعود، التي جُعلتُ واسطة في الدرجة الأولى في إعطائها وتفسيرها إلى جميع من يهمه الأمر بمقتضى منزلتي الرسمية، سوف يعبث بها في القاهرة بأي مقدار يُعتد به. فعبر لي عن رأيه بأن موقفي كان معقولاً جدًّا وله ما يبرره بالنسبة للظروف الراهنة مع أنه لم يعرف شيئاً عن مدى تقدم المداولات في القاهرة أكثر مما كنت أعرفه أنا، وأنه سوف يعرض مذكرتي على كوكس عند عودته. ولأجل أن أجس الأمور مقدماً واجهت كوكس عند أول رجوعه. وكان قد قرأ مذكرتي فأكد لي أن الحكومة البريطانية لا تنوي النكول عن وعودها لأهالي العراق. أما غيرترود بيل وجعفر باشا فقد كانا أقل تبصراً في حديثهما عن المؤتمر، لكنني بالنظر لتطيمنات كوكس إليّ شعرت بارتياح وكان في وسعي أن أهدئ أشد مخاوف السيد طالب والنقيب. غير أن الشائعات استمرت على اكتساحها للمدينة فكان الوضع يزداد حراجة.



السيد طالب باشا النقيب

نهاية السيد طالب باشا النقيب السياسية

وفي أحد أيام أواخر مارت أخبرني السيد طالب أنه سيقيم وليمة عشاء في بيته لجميع القناصل والممثلين الدبلوماسيين في بغداد، ولأبرز رجال التجارة والأعمال من الجالية الأوروبية الموجودة في بغداد وعدد من الوجهاء المحليين. وكانت النية أن يُدعى إلى الوليمة أيضاً مراسل جريدة «الديلي تلغراف» المستر أيس. لاندن، وقد طلب إليّ السيد طالب أن ألبي دعوته أيضاً. فاقترحت عليه أنني من الأوفق أن لا أحضر الوليمة لأن الحديث فيها سيكون ذا صبغة سياسية وأن حضوري وأنا الموظف البريطاني الوحيد سوف يقيد حريته، ولم أذهب بالفعل. فكان الحديث سياسيًّا في الحقيقة، وقد سالت الخمرة خلاله كما يسيل الماء وفي ضمنها أفخر أنواع الشمبانيا. كما كان صاحب الدعوة مرحاً مثل أي مدعو آخر، وربما أكثر مرحاً من غيره، وفي نهاية الدعوة نهض ليخفف عن قلبه شيئاً من العبء السياسي الذي كان أكثر مما يتمكن تحمله. وكان فحوى حديثه أن شائعات تعيين فيصل ملكاً في العراق أخذت تملأ الأندية والمحافل وهو يود أن يوضح للحاضرين وللحكومة البريطانية أن أهالي العراق لا يريدون فيصلاً ولا يتساهلون بفرضه عليهم. «وإذا كنتم تشككون في حديثي فبيننا على هذه المائدة هنا الشيخ محمد أمير ربيعة عنده أربعون ألفاً من أشداء الرجال والشيخ فلان وفلان على رأس قبيلة

تعد ثلاثين ألف رجل، اسألوهم ليجيبونكم عما يفكر فيه الناس في هذا الشأن. وأن الحكومة البريطانية كانت قد وعدت بأننا سننتخب شكل الحكومة الذي نريده بحرية، وأنني أحتج ضد أي تغيير يطرأ على ذلك الوعد». فعجّل أحد ضيوف السيد طالب، وكان تاجراً اسمه تود، بالذهاب إلى «مرتع العزوبة» ليقص على غيرترود بيل جميع ما جرى في الوليمة، فنقلت غيرترود بيل ذلك إلى كوكس في اليوم التالي.

وكان السيد طالب قد صادف قبل أيام الليدي بيل في إحدى الحفلات فعاتبته على تقصيره في عدم زيارتها أحياناً. وعلى هذا وافق على تناول الشاي معها في يوم السبت التالي، أي السبت الذي كان يلي وليمة العشاء التي أقامها هو. وفي حوالي الظهر من ذلك اليوم أطل عليّ في غرفتي قائلاً أنه قد أنجز أشغال اليوم وسأل فيما إذا كانت هناك بعض الشؤون التي يمكن البحث بها مع كوكس لأنه يأمل أن يلتقي به وقت تناول الشاي بعد ظهر ذلك اليوم نفسه. فقلت له أنه ليست هناك قضايا خاصة تحتاج إلى البحث، فخرج من الدائرة.

وقد تصادف أن زوجتي وأنا كنا مدعوين من قبل ضابط من الضباط يدعى الكابتن كوكس للرقص وتناول العشاء في نادي العلوية تلك الليلة. وعندما وصلنا النادي استقبلنا ضابط آخر وأخذ يشرح لنا أنه ينوب مناب صاحب الدعوة في القيام بواجب الضيافة لأنه الكابتن كوكس استُدعي فجأة للقيام بمهمة مستعجلة. وعندما قمنا لتناول العشاء همس في أذني قائلاً: «شيء مزعج، أليس كذلك؟» فاضطررت للاكتفاء بذلك موقتاً؛ وفي خلال رقصة لم تتيسر لي زميلة أراقصها فيها ذهبت إليه على «البار»، وبعد أن طلبت مشروباً لكلينا قلت له: «أنا آسف لما حل بالكابتن كوكس، قل لي كيف وقع ما وقع؟» وقد كان يتصور بطبيعة الحال أنني كنت على علم بكل شيء، فروى لي القصة بكاملها.

حيث أن السيد طالب خُطف بأمر من السر پيرسي كوكس عندما

كان ضيفاً في بيته، ثم نقل بسيارة مسلحة إلى زورق بخاري كان راسياً في جنوب بغداد ليأخذه إلى البصرة ثم إلى المعتقل في جزيرة سيلان. وهنا يجب أن أدون تفصيل وقوع الحادث.

أنني مقتنع أن الليدي كوكس كانت الفريق البريء تماماً في المؤامرة التي حيكت بمهارة حتى بقطع جميع أسلاك التلفون المهمة في ضمنها خط التلفون العائد لي. كان كوكس نفسه قد ذهب إلى ساحة «السباق» تاركاً رسالة اعتذار عند الليدي كوكس التي كانت معها غيرترود بيل عندما أُعلن وصول السيد طالب. وبينما كان أقداح الشاي تقدم حضر بصورة عرضية كل من الميجر أي. دبليو. بوڤيل والكابتن كوكس واشتركا في تناول الشاي ثم تركا المجلس. وبعد عشر دقائق نهض السيد طالب للخروج فشيعته غيرترود بيل إلى باب «المقيمية» الخارجي، وبعد أن صعد إلى سيارته عادت راجعة. وما أن شغّل السائق سيارته حتى وجد الطريق مسدود بعددٍ من سيارات الحمل. وعندما همّ السيد طالب بالاعتراض على سوء الأدب هذا ظهر بوڤيل والكابتن كوكس من خلف إحدى سيارات الحمل معتذرَين عن انسداد الطريق، ثم طلبا إليه أن يعتبر نفسه سجيناً عندهما. حيث كانت لديهما تعليمات بتوقيفه ونقله من بعد ذلك إلى جهة مجهولة. وبذا دخل أصلب رجل في بلاد العرب في فخ من أبسط الأنواع لم يكن له مجال ممكن للتملص منه. وعلى هذا ذهب بهدوء.

فاغتاظت زوجتي وغلا فيَّ مرجل الغضب. وفي أبكر ساعات اليوم التالي، بعد أن أُصلح خط تلفوني، اتصلت بكوكس فرجوت منه إذا كان في وسعي أن أقابله للمداولة معه بما كان قد حدث في اليوم السالف. فأجابني بقوله: «بالتأكيد، يمكنك المجيء في أي وقت ترغب فيه حيث أني غير مشغول الآن». وعلى هذا ذهبت وأنا مزمع على تقديم استقالتي في الحال، ثم عدت، بعد ثلاث ساعات من المناقشة، وأنا عضو من

أعضاء الوزارة[1] العراقية، أي وزيراً للداخلية وكالة عن السيد طالب وكان كوكس صريحاً تمام الصراحة معي حول نفي[2] السيد طالب، وقد

---

(١) كان في وسع المستشار يومذاك أن يتوكل عن الوزير.

(٢) وبعد أن نفي السيد طالب أذاع السير بيرسي كوكس بلاغاً هذا نصه:

بلاغ من ديوان المندوب السامي

يرى فخامة المندوب السامي من المناسب أن يوقف الرأي العام على الأسباب التي اقتضت بإقالة السيد طالب باشا من الحكومة وإخراجه من بغداد.

إن فخامة المندوب السامي قبل مغادرته بغداد صرح مراراً علانية وفي أثناء محادثاته مع المأمور والاشراف بأن رغبته جلالة الملك ترمي إلى ضمان الحرية التامة إلى العراقيين ليعربوا عن رغباتهم بشأن نوع الحكومة التي يطلبونها والشخص الذي يريدون أن يتولى عليهم. وعند رجوع فخامته من القاهرة أكد تصريحاته هذه لعظمة رئيس مجلس الوزراء وللسيد طالب باشا لما فاتحاه بشأن المسألة نفسها. ولكن في صباح اليوم السادس عشر من اليوم الحالي بلغ مسامع فخامة المندوب السامي أمر خطاب وجهه السيد طالب إلى فريق من الوجهاء في أثناء مأدبة أقامها في اليوم الرابع عشر من الشهر الحالي، إكراماً لوجيه بريطاني أثناء زيارته بغداد زيارة قصيرة، وبعد أن ألح السيد طالب على ضيفه مستفحصاً منه ما إذا كان بإمكانه تأكيد تصريحات فخامة المندوب السامي إلى موقف الحكومة البريطانية في هذا الشأن، وبعد أن استفهم معن خير الطرق التي يضمن بها إقالة بعض الموظفين البريطانيين من حاشية المندوب السامي لم يستحسن خطتهم أستطرد في الكلام بقوله أنه هو وأبناء بلاده قد عزموا على حمل ذوي الشأن على تنفيذ خطة حكومة الملك بأمانة حسب التصريحات المذكورة آنفاً. ثم التفت إلى أمير ربيعة والشيخ آل خيون اللذين كانا في عداد ضيوفه وقال كمن يقترح اقتراحاً أنه إذا بدرت أي بادرة عكس ذلك فيجب أن يحسب حساباً لأمير ربيعة والعشرين ألفاً من رجاله المسلحين وللشيخ سالم ال خيون والقبائل التابعة له. وقد تمادى في تهوره حتى قرن اسم عظمة النقيب في هذا التهديد.

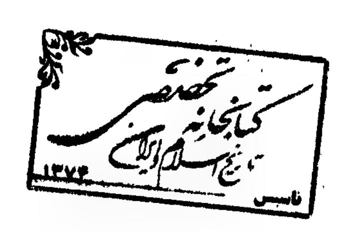
إن فخامة المندوب السامي لا يخامره أبداً أقل شك في الموقف الحبي الذي للزعيمين المشار إليهما أوفى استقامة مقاصد عظمة النقيب استقامة تامة. ولكن فخامته يرى أنه والحالة هذه إذا بدا أقل تسامح في أمر التفوه بالكلام ينم عن تهديد =

تحققت أنه، بالنسبة للظروف، لم يكن واثقاً مني قبل وقوع الحادث لأنني لو علمت بما كان مبيتاً لأنذرت صديقي بعدم تلبيته دعوة الشاي على وجه التأكيد. ولا أعلم ما كان في وسع السيد طالب أن يفعل لمقابلة المؤامرة التي كانت تحاك ضده. وكان كل ما وقع من اختصاص كوكس وهو مسؤول عنه. وقد أعربتُ عن عدم تأييدي لما فعله، كما فسرت ذلك لمجيء فيصل. ثم ذكرته بمذكرتي قائلاً أنني ما زلت مصراً على ما جاء فيها. لكنه أكد لي بأنه لم تكن ثمة نية في فرض فيصل ملكاً على الناس. ولم يسعني غير أن أتقبل التطمين قبولاً حسناً، ثم انصرفنا نحو البحث في شؤون المستقبل - وخاصة انتقاء من يخلف الوزير المُبعد. فقال لي: «أنني لا أعتقد بوجود الاهتمام بهذا الموضوع الآن، حيث يصعب علينا أن نجد رجلاً جديداً للداخلية في الوقت الذي أمامنا جميع شؤون الانتخاب هذه. وأنت تعرف شؤونها ومن الأرجح أن تتابع العمل كوزير، وسوف أشرح ذلك للنقيب».

= شائن بإشهار السلاح في وجه حكومة جلالة الملك ويصدر عن رجل كالسيد طالب باشا الذي يشغل منصباً خطيراً فيكون مقصراً في القيام بواجبه نحو سكان هذه البلاد والحكومة البريطانية.

فبناء على ما تقدم وحبًّا بمصلحة القانون والنظام والحكومة الصالحة رأى فخامته من واجبه أن يطلب من القائد العام أن يتخذ التدابير اللازمة لإبعاد السيد طالب حالاً.

وقد غادر بغداد مساء اليوم السادس عشر من الشهر الحالي (نيسان ١٩٢١).



مجيء الأمير فيصل

وعلى هذا تربعت على دست الحكم في مكان السيد طالب وسار كل شيء سيراً حسناً. ولم يكن هناك ما يدل على وقوع تطورات غير مرغوب فيها عدا ازدهاء الحزب الشريفي المتعاظم الذي كان يبين مبنيًّا على سوء فهم وتقدير. وأخذت الشقة في هذا الدور تزداد توسعاً بيني وبين غيرترود بيل مع أني كنت كثير المشغولية بحيث لم يساورني القلق من أجل ذلك، في الوقت الذي كنت أدرك أنها كانت في معسكر العدو بصورة جازمة. وفي أحد الأيام، بعد انتهاء جلسة طويلة من جلسات مجلس الوزراء، طلب إليّ النقيب الشيخ أن أتأخر لأنه كان يريد التحدث إليّ شخصيًّا. وعندئذٍ بادرني قائلاً: «هل تعرف شيئاً عن هذا؟» ووضع في يدي برقية، بعد أن ترك الجميع الغرفة. وكانت البرقية قد وردت من جدة بتوقيع جعفر أبي التمن، أحد وجهاء بغداد المبعدين بناءً على اشتراكه في الثورة. وكان نص البرقية أن: «سمو الشريف فيصل أبحر اليوم إلى البصرة، أعدوا الاستقبال اللائق».

فأجبت قائلاً: «كلا، لا أعرف شيئاً. ولكن هل في وسعي أن أحتفظ بالبرقية؟ سوف أذهب لمواجهة كوكس في الحال، ثم أعود لأخبركم بما يقول». ثم ذهبت فوراً إلى «المقيمية» حيث وجدت كوكس غير مشغول. وبادرته قائلاً: «أن الأسواق ملأى بالشائعات بأن فيصلاً قد

أبحر من جدة متجهاً إلى البصرة، فهل ذلك صحيح؟» إلا أنه أجابني: «أؤكد لك يا فيلبي، لا أعرف شيئاً عن ذلك. حيث أنني لم تصلني مثل هذه الأخبار». وعند ذاك أبرزت البرقية قائلاً: «إذن، قد يهمك أن تقرأ هذه». فكرر تأكيداته السابقة بأنه لا يعرف شيئاً عنها، ثم خرجت لموافاة النقيب بالنتيجة.

وبينما كانت الأحوال تتطور بصورة لا يمكن تحملها بالنظر للشائعات المتناقضة أعلن رويتر أن المستر تشرشل سوف يدلي بتصريح عام يختص بسياسة الحكومة في الشرق الأوسط بتاريخ ١٢ حزيران. وكانت زوجتي وأنا قد اتخذنا الترتيبات اللازمة لإقامة حفلة عشاء ورقص فخمة في نادي العلوية يوم ١٣ حزيران ندعو إليها حوالي المائتي ضيف، من بينهم كوكس وعقيلته وغيرترود بيل وغيرهم من عسكريين ومدنيين. وقد كنا مزمعين أن تكون الحفلة ذات قيمة كبيرة، وبذا كانت زوجتي وأصدقاؤها قبل موعها بيوم أو يومين منهمكين في تزيين قاعة الرقص. فصدرت «الأوقات البغدادية» في صباح يوم الحفلة وفيها النص الكامل لخطاب[1] تشرشل، فعجلت بإخفائها لئلا ترى زوجتي الخطاب. ثم

---

(١) نشرت جريدة العراق في عددها ٣٢١ الصادر في ١٨ حزيران ١٩٢١ ترجمة نص الخطاب المذكور، وهاك ما جاء فيه عن العراق:

... ولعلكم تذكرون أنه نشر في العراق في حزيران ١٩٢٠ بلاغ جاء فيه أن السر بيرسي كوكس عائد في الخريف وقد عهد إليه أمر إنشاء حكومة عربية محضة. وقد أنجز الشيء الكثير من ذلك، فأنشأ حكومة احتياطية (مؤقتة) يرأسها سماحة النقيب. وأننا لنعترف بما قام به سماحته من الخدمات الجليلة والإخلاص في المعاونة، وفي النية الاستعاضة عن الحكومة المؤقتة هذه بإدارة أساسها جمعية عمومية منتخبة وذلك في البضعة الأشهر المقبلة وإجلاس حاكم عربي تقبله البلاد وإنشاء جيش عربي لأجل الدفاع الوطني. وليس في النية إكراه الشعب على قبول حاكم مخصوص. وستطلق الحرية التامة في البحث والافصاح عن الرأي سواء كان ذلك في أمر انتخاب الحاكم أو انتخاب الجمعية العمومية. ولما كانت الدولة =

لحقت بزوجتي في النادي لإلقاء نظرة أخيرة على الترتيبات وغيرها من الترتيبات، وفي الساعة المعينة وقفنا في الباب لاستقبال الضيوف. وقد رقصت أول رقصة مع الليدي كوكس التي كانت منشرحة كالطفل، كما رقصت الرقصة الثانية مع غيرترود بيل التي أعربت لها بصراحة تامة رأيي في خطاب تشرشل وفي مؤتمر القاهرة وكل شيء آخر. ورقصت وشربت تلك الليلة بكل حرية لأغرق أحزاني وأتراحي، وما أن حل وقت العشاء حتى كنت على شيء من التمايل، ولا أتذكر ما بقي من الحوادث حتى أنني لا أتذكر بكل تأكيد أنني رقصت الرقصة الأخيرة مع غيرترود وناقشتها مناقشة حادة كما اتهمتني زوجتي في صباح اليوم التالي. ولم أبح لها بما كان يساورني إلا في ذلك الصباح، وعندئذٍ فهمت كل شيء. حيث أن تشرشل كان قد صرح في البرلمان أن فيصلاً كان في طريقه إلى العراق ليرشح نفسه إلى العرش، وأن الحكومة تتمنى له كل توفيق وتأمل أن العراق سوف يقدر هذه الفرصة التي تسنح له في تحقيق أمانيه. وقد علمنا كلنا ماذا كان يقصد بذلك. حيث أن «قطة القاهرة أُطلق سراحها من الكيس» أخيراً. لكن الغريب أن السياسة المعلن عنها في حرية انتخاب رئيس للدولة كانت ما تزال معترفاً بها، وأن الوضع والحالة هذه لم يكن في صالح فيصل[1] وأقليته الضئيلة من المؤيدين في البلاد. لكن

= المنتدبة قد تكبدت نفقات باهظة فلا يمكنها والحالة هذه أن تتغاضى عن مسألة حيوية هذا شأنها. فطبيعة الحال تقضي بأن تكون رغبتنا انتخاب أفضل المرشحين، ونحن واثقون أن العراقيين يتخذون الحكمة رائداً لهم في انتخاب هم أحرار فيه وذلك بإرشاد السر بيرسي كوكس الذي نثق به كل الثقة...

وقد بلغت الحكومة البريطانية الأمير فيصلاً أنها لا تعارض في ترشيحه، وأنه إذا تم انتخابه فالحكومة البريطانية تؤيده. وهو الآن في طريقه إلى البصرة، ولا شك في أن فيصلاً لو انتخب نكون قد توصلنا إلى حل فيه مستقبل سعيد ناجح.

(١) أنني أعتقد أن المستر فيلبي غير مصيب في حكمه التعسفي هذا. حيث أن قرائن =

الحكومة البريطانية كانت على الدوام لها أساليبها الخاصة في توفيق ما لا يتوافق.

= الأحوال تدل على أن البلاد، بعد أن عرفت بالثورة العربية في الحجاز وبالبلاء الحسن الذي أبلاه الشريف الحسين وأنجاله وأخصهم فيصل، كانت متهيئة لقبوله ملكاً عليها. كما لم يكن هناك ميل إلى الجمهورية إلا في مخيلة فيلبي نفسه وبعض أتباع السيد طالب باشا وغيره. ولعل المستر فيلبي في قوله هذا كان ينظر إلى الأمور بمنظار ميله إلى السيد طالب باشا وعبد الرحمن النقيب وكرهه للشريف وأنجاله.

ودليلنا على ذلك ما يلي من المستندات المتوفرة لدينا:

١- برقية ويلسن وكيل الحاكم الملكي العام في العراق إلى وزارة الهند المرقمة (١٠٢٥٠) والمؤرخة ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٨. وويلسن كما لا يخفى هو قطب الاستعمار البريطاني الكبير الذي كان يناوئ استقلال العراق وتأسيس الحكم الوطني فيه.

٢- نتائج الاستفتاء العام الذي أجراه ويلسن في العراق ١٩١٨ - ١٩١٩. حيث دل الاستفتاء أن البلاد ترتضي بالملوكية لأحد أنجال الشريف.

٣- البرقية التي أبرقها ويلسن بعد انهيار الحكومة العربية في سوريا، وترجمتها كما يلي: «هل في وسع حكومة صاحب الجلالة أن تنظر في إمكان تقديم إمارة بين النهرين إليه؟ فقد كانت من اعتراضاتنا هنا حتى الآن بالنسبة إلى تأسيس الأمارة، في الدرجة الأولى، عدم إمكان وجود الشخص اللائق لها. وكنا على الدوام نعتبر سورية من نصيب الأمير فيصل. وليس هناك مما سمعته في الأشهر القلائل الأخيرة ما يجعلني أبدل رأيي في عدم صلاحية الأمير عبدالله، وأن تجاربنا في الأسابيع الأخيرة القليلة في بغداد تجعل من الواضح عدم نجاح أي مرشح محلي في الحصول على المعاضدة الكافية هنا».

٤- سلسلة الرسائل المؤرخة في (٢٣ رجب) ١٢ نيسان ١٩٢٠ المعنونة إلى ملك سورية (فيصل) وإلى ملك العراق (عبدالله) التي وقعت في يد السلطات البريطانية.

وهي رسائل تهنئة للأميرين على انتخابهما للملوكية وترحيب بعبدالله من رعاياه كانت موقعة من شيوخ وسادة الشامية والسماوة والرميثة وقبائل المنتفك، ومن وجهاء وسادة الكوفة والنجف والحلة والشامية. وهذه تدل بلا شك أن الفرات بأجمعه والمدن الشيعية المقدسة كانت راغبة في أحد أنجال الشريف. وقد قويت =

وكانت الفقرة الأخرى في المنهاج إعداد ما يلزم لاستقبال فيصل. فلم تنشأ في بغداد أية صعوبة بالنظر لوجود كوكس في الميدان وقيام غيرترود وجعفر باشا في تشكيل «لجنة استقبال» ووضع منهج خاص للاحتفالات والأفراح. وفي الامكان أن يعتمد على البصرة، لما فيها من الجماعات العسكرية والمدنية الكبيرة، في الظهور في المظهر الحسن المطلوب، لكن المشكلة التي نشأت هي مشكلة اشتراك المندوب السامي والحكومة المؤقتة في استقبال فيصل عند أول نزوله في البصرة. وقد بحثت القضية مع كوكس الذي كان مرتاباً في موقفي الشخصي والذي كان يعلم أن انتخاب الملك في النهاية سوف يتم على يدي. ولأجل أن أريحه مما كان يفكر فيه تطوعت أن أشخص إلى البصرة لاستقبال فيصل. فأجابني بقوله: «سأكون ممتنًّا جدًّا إذا فعلت ذلك».

= رغبتهم في فيصل بعد سقوط حكومته العربية في سورية.

٥- ما ذكرته المس بيل في مناسبات عديدة حول الموضوع. فقد ذكرت في الصفحة ٢٦١ من رسائلها أن علماء الشيعة نادوا في أواخر كانون الأول بأن «البلاد سوف لا تقتنع بغير الاستقلال التام برعاية أحد أنجال الشريف»، وكتبت في النص ٥٨١: «أني على اقتناع تام بأنه ليس هناك غير حل عملي واحد وهو ترشيح أحد أنجال الشريف، واختياري الأول منهم الملك فيصل». هذا كله فضلاً عن شعور بغداد قلب العراق والموصل.

أما ما سيذكره المستر فيلبي عن الفتور الذي لقيه فيصل في الاستقبال واتخاذه ذلك دليلاً على عدم رغبة البلاد في ملوكيته فإن ذلك - كما سيرى القارئ الكريم - ناشئ عن التعليمات التي أصدرها فيلبي نفسه وقد كان وزيراً للداخلية بالوكالة بحجة المحافظة على وعد بريطانية بإعطاء الحرية للبلاد في الإفصاح عن رغبتها.

ونقول أخيراً أن سير البلاد قاطبة وراء فيصل وتعلقها بأسرته الآن وافتقادها له في كل ظرف عصيب - أن ذلك كله أنصع دليل على أنها كانت راغبة فيه ليحقق لها استقلالها ويجمع شمل العرب.

وهناك شرح مسهب يؤيد ما نذهب إليه في كتاب آيرلاند عن العراق الذي نشرت ترجمته مؤخراً، وخاصة في النص ٢٣٨ - ٤١ من الترجمة العربية.

وعلى هذا أقلني القطار إلى البصرة، وفي كل محطة في طريقنا إليها كان يقابلني حكام المناطق ومستشاروهم مع جمهور كبير من الأهلين، وكانوا كلهم يسألونني نفس السؤال، وهو: «ماذا يتحتم علينا أن نفعله من أجل استقبال فيصل؟ وما هي الأوامر في هذا الشأن؟» فكنت أجيبهم جميعاً بقولي: «ليس هناك أوامر رسمية يجب أن تقرروا ما ترتأونه بأنفسكم. حيث أن فيصلاً قادم الآن كمرشح للعرش لا كملك. وأن وزارة الداخلية ستنظر بالأمر. كما أن ممثليكم المنتخبين سيقررون بحرية تامة شكل الحكومة المقبل وينتخبون رئيساً للدولة. ولا بد أنكم قرأتم خطاب تشرشل وعرفتم ماذا يريد هو، لكن الحكومة البريطانية سوف لا تتدخل في حرية تصويتكم».

أما المشاورون البريطانيون، الذين كانوا يريدون بطبيعة الحال أن يتزودوا بتعليمات أكثر دقةً بشأن الموقف الذي يجب أن يتخذوه، فقد قلت لهم على حدة: «أعيدوا ما قلته للناس الآن من دون أن تضغطوا عليهم في ناحية دون أخرى. حيث أن الانتخاب سوف يكون حرًّا تمام الحرية. وعليكم أنفسكم أن تستقبلوا القطار في المحطات التي تقع في مناطقكم من دون أن تنظموا أية مظاهرة، فإن ذلك متروك للأهالي أنفسهم. وأن الاستقبال حتى في بغداد والبصرة ينظم الآن بصورة غير رسمية»[1]. وقد وصلت البصرة قبل وصول فيصل بيوم أو يومين، وردًّا

---

(١) أن هذا يناقض ما جاء في قرار مجلس الوزراء، الذي كان فيلبي مشتركاً فيه بصفته وكيلاً لوزير الداخلية، في جلسته المنعقدة يوم الخمس ١٦ حزيران ١٩٢١ والمصادف ليوم ٩ شوال ١٣٣٩. حيث قرر المجلس بناء على اقتراح سماحة الرئيس (النقيب) «وجوب الاحتفال بقدوم سمو الأمير فيصل والقيام بما يليق بعظمته من التفخيم والتبجيل من قبل الحكومة الوطنية». كما تقرر باتفاق الآراء «تعيين لجنة لاختيار محل يليق بسمو الأمير ووضع منهاج لاستقبال سموه وأن تتعهد وزارة المالية بصرف المبالغ اللازمة في هذا السبيل». وقد ألفت اللجنة من الوزراء التالية =

على جميع الاستفسارات المتلهفة طمنت الجميع أن الانتخاب سيكون حرًّا.

وعندما دخلت الطرادة البريطانية إلى المرفأ ذهبت بزورق بخاري وفي معيتي أقدم الموظفين المدنيين والعسكريين إليها وصعدنا فيها. وكانت تلوح على فيصل بلباسه العربي إمارات الملوكية التامة، وكان بجانبه كيناهان كورنواليس والحاشية عندما تلقانا في رأس الممر. كما كان البشر يطفح من أوجه الجميع، فقدمت له تحيات واحترامات المندوب السامي والحكومة المؤقتة ورد عليها فيصل بغاية اللطف والرقة. وعندما وطئت قدماه[1] الأرض العراقية لم يكن عنده ما يشكو منه بين الجماهير التي حيته في رصيف الميناء مع أن الاستقبال لم يكن فيه إلا شيء قليل من الحماسة ولا شيء من النشوة على وجه التأكيد. وخُصص اليومان التاليان للاحتفالات والولائم والمراسيم الأصولية، وفي الأخير استقلينا القطار الخاص. وقد سافرت مع كورنواليس سويًّا. فتسنى لي تعريفه على الوضع في البلاد وعلى ما يخبؤه المستقبل للبطل الذي جاء معه. فوصلنا لواء الناصرية في الصباح الباكر لنجد في انتظارنا المتصرف ومشاوره وعدداً قليلاً من موظفي الحكومي - وفيما عدا هؤلاء كانت المحطة خاوية وخالية من وسائل الراحة. وقد يكون السبب في ذلك وصولنا بصورة مبكرة، لكن الوضع كان مماثلاً على طول ذلك اليوم الطويل - في السماوة والرميثة والديوانية وفي جميع المحطات التي

= أسماؤهم: جعفر باشا العسكري وعبد الغني جلبي كه وفخر الدين جميل وعبد الجبار باشا خياط وعبد المجيد الشاوي وعبد الرحمن باشا الحيدري.

(١) وصل الأمير فيصل البصرة تقله الباخرة «نورث بروك» يوم ٢٣ حزيران ١٩٢١ (١٧ شوال ١٣٣٩). وقد عاد في الباخرة نفسها إلى العراق بعض زعماء الثورة العراقية، الذين فروا إلى الحجاز من منطقة الفرات بعد انتهاء أمد الثورة، مثل السيد هادي مكوظر والسيد نوري الياسري والسيد محسن أبو طبيخ وغيرهم.

مررنا بها في الطريق. حيث أن الأهالي كانوا قرروا أن لا يحيوا ملكهم المنتظر. ولم يكن الاستقبال جيداً إلا في الحلة حيث كان مقرراً أن نبيت ليلة واحدة، وقد نظم ذلك ديكسن تنظيماً لا نقص فيه.

مصارحتي للأمير فيصل

فتقاطرنا خارج المحطة - وكان الظلام قد خيم - إلى فسطاط وسيع جلسنا كلنا فيه على الأرض حول خوان كبير. وكانت حوادث اليوم قد أثارت غيظ فيصل. قد قضيت أنا وكورنواليس معظم الطريق في قاطرته نبحث الوضع ونتناول الويسكي والصودا. وقد أوضح فيصل أنه لم يأتِ العراق إلا بدعوة من الحكومة البريطانية، وأنه يتوقع أن يؤازره الموظفون البريطانيون مؤازرة فعالة في ترشيحه للعرش. فكنت صريحاً معه صراحة تامة. كما كان واضحاً جدًّا أن الحكومة البريطانية تريده ملكاً في العراق. ألم يقل تشرشل ما يؤدي إلى هذا المعنى؟ ألم تقلّه إلى العراق طرادة بريطانية - وإلى غير ذلك؟ لكن الانتخاب يجب أن يكون انتخاباً حرًّا. حيث أن التعليمات صدرت بهذا المآل إلى جميع الموظفين البريطانيين في البلاد. وقد أضفت إلى ذلك أنه إذا كان يريد كسب أصوات الأهالي في البلاد على أساس أنه مرشح بريطانية العظمى فإن أمله في النجاح سيكون ضعيفاً.

وعلى هذا فليس من العجب أن نراه يحدّث الضيوف المجتمعين، بعد تناول العشاء، وهو تعب متكدر. وفي اليوم التالي أقلّتنا السيارات إلى النجف لنكون ضيوفاً على رجال الدين الشيعة في تلك المدينة

المتعصبة، حيث يرقد آدم وعلي تحت الطُوق الأرضية العميقة ومن فوقها الضريحان السامقان. وهنا أيضاً كُرّمنا تكريماً ملكيًّا وبتنا ليلة واحدة.

وقد ابتعدت أنا وكورنواليس عن فيصل بكل تبصر لنفسح المجال له بالتعامل مع المتعصبين بطريقته الخاصة هو - حيث كان يتحتم عليه هنا على الأقل أن يبذل كل ما في وسعه من أجل أن يفند الانطباع العام القائل أنه مرشح الحكومة المسيحية. ثم سافرنا في اليوم التالي في الطريق الصحراوي إلى كربلاء حيث وقعتُ فريسة لنوبة مخيفة من الملاريا التي أقعدتني تماماً لمدة أسبوع أو عشرة أيام. فنقلت إلى الحلة حيث رافقتني زوجتي لمداراتي وايصالي للشفاء مع تقرير كامل عن الاستقبال الملكي الذي استُقبل به فيصل، في الوقت نفسه، عند وصوله بغداد[١].

وعند عودتي لبغداد ذهبت لمواجهة كوكس الذي بدأ حديثه معي باستفسارات رقيقة عن صحتي، لكنه سرعان ما انتقل من ذلك إلى حديث العمل. فقال لي: «يبدو أنك لم تتماش مع فيصل جيداً، فقد كان متذمراً بمرارة من موقفك خلال السفرة إلى هنا. وهو يصرح أنه سوف لا يبقى

---

(١) لقد جاء في إحدى رسائل المس بيل المؤرخة ٣٠ حزيران ١٩٢١ بشأن انزعاج الأمير فيصل ما يلي:

«وكانت القصة التي سمعوها - تشير إلى حاشية فيصل - على طول الطريق هي أن المندوب السامي يتخذ موقفاً محايداً، وأن الخاتون وغاربيت يريدان فيصلاً، وأن المستر فيلبي يريد الجمهورية... وقد ارتبك فيصل بطبيعة الحال - واحتار فيما إذا كان المندوب السامي بجانبه، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يتخذ موظفوه موقفاً مختلفاً؟ وقد اشتدت حيرته عندما قيل له أن الموظفين البريطانيين الموجودين محليًّا إذا أشاروا بإصبعهم فإن الناس أجمع سوف يحذون حذوهم. فلماذا لا يشار بالاصباع إذن إذا كانت السياسة الرسمية هي هذه؟ فشرحنا جميع ما وقع مشيرين إلى التأخير الطويل الذي طرأ على وصول الأوامر من انكلترة، كما بينا أن موقف السر بيرسي كوكس كان موقفاً صحيحاً بالكلية وأنه عازم على المضي في الأمر إلى النهاية».

ما لم يُطمن عن تأييد جميع الموظفين البريطانيين تأييداً فعالاً له». فقلت له: «لا يمكنني أن أفهم كيف أنه يتوقع ذلك بالنظر للأوامر الرسمية، *التي هي أوامرك أنت، والتي لم تلغ أو تحور، بشأن حرية الانتخاب*. وإنني كثيراً ما كنت أطمئن النقيب وغيره بأننا عازمون على البر بالوعود التي بذلناها لهم. وأن فيصلاً، بطبيعة الحال، قد أدرك أن نجاحه سيكون ضعيفاً إذا سار الانتخاب سيراً حرًّا. والحق أنني بيّنت ذلك له بصراحة. فأجابني كوكس: «أنني أعرف أنك قلت له ذلك، لكنك تعلم بصورة أكيدة الآن ما الذي تريده الحكومة البريطانية. فرددت عليه بقولي: «أنني أعرف ذلك طبعاً. كما أنني أدركت ذلك منذ مدة طويلة برغم جميع التأكيدات التي بذلتها لي بعكس ذلك. غير أن ما لا أتمكن من فهمه هو أن الحكومة البريطانية إذا كانت تريد وتعتزم أن يكون فيصل ملكاً، فلِمَ إذن لا تعيّنه بصورة مستقيمة لا التواء فيها بدلاً من أن تصر على مهزلة الانتخاب. وعلى كل، إنني أشعر أني أصبحت متورطاً تمام التورط بالتطمينات التي بذلتها إلى الجميع ليساهموا في معالجة شؤون الانتخاب». فقال كوكس: «أنني على علم بذلك، لكنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن التوفيق بين موقفك هذا وبقائك في منصبك». وكان جوابي: «إذا كان المتوقع مني أن أدير شؤون الانتخاب فإنني لست راغباً في أن أبقى في منصبي، وإذا كان في وسعك أن تعين خلفاً لي سأذهب من هنا وأسلمه المنصب في الحال». وعندئذ قال لي: «شكراً فيلبي، أنني آسف سوف لا يسعك أن تستمر على التعاون معنا»[١]. وبعد شيء

---

(١) وقد أشار السر بيرسي كوكس إلى ذلك، في ملخصه التاريخي الذي كتبه بمناسبة نشر «رسائل المس بيل»، قائلاً: «..وبعد سنة اضطررت للتخلي عن المستر فيلبي لأنه، في مرحلة التطور التي وصلنا إليها يومذاك، بدأ تفهمه لسياسة حكومة صاحب الجلالة يبتعد جدًّا عن تفهمي لها. لكنني مع هذا اعترف بفائدته العظمى لي في الأيام الأولى».

من البحث الودي التام بشأن انتقاء خلف مناسب - كان كورنواليس أبرز من يليق للمنصب، لكن انتقاءه الآن يعد شيئاً في غير محله، وقد قدر له أن يشغل منصبي بعد ذلك كمستشار للداخلية مدة أربعة عشر عاماً - تقرر اختيار جي. آر. طومسن مساعد مستشار وزارة المالية يومذاك. وبعد ذلك ذهبت مباشرة إلى سليتر وأخبرته أنني رفعت استقالتي، ثم أخذت طومسن ليتسلّم مكاني.

وعند دخولي غرفة الاستقبال في البيت قلت لزوجتي: «لقد قدمت استقالتي». وسرعان ما انتشر الخبر في جميع أنحاء المدينة، وفي وقت تناول الشاي دخلت علينا غيرترود بيل قائلة بتعجب: «جاك، إنني آسفة لسماع هذا النبأ»، فبادرتها زوجتي بفظاظة قائلةً وهي تخرج متعدية إياها إلى خارج الغرفة: «كلا، أنتِ غير آسفة». فطيبتُ خاطر غيرترود بعد أن قدمت لها كوباً من الشاي، ثم أخبرتها عن مقدار سروري بالابتعاد عن هذا الدس القبيح. وكانت زوجتي تتوقع أن تضع طفلاً في تشرين الثاني، فوافق كوكس على بقائها في دارنا بقدر ما يروق لها أن تفعل. ولأجل أن أقضي على تورطي بالبقاء في بغداد، في الوقت نفسه، طلبت إجازة لثلاثة أشهر أقضيها بالتجوال في إيران. وبمثل هذا انتهت علاقتي الرسمية بالعراق وبكوكس: أما قانون الانتخاب، الذي تعبنا في إحضار لائحته، فقد أودع في سلة المهملات، وبدلاً من الانتخاب المزمع إجراؤه نظم كوكس استفتاءً حول سؤال واحد، وهو: «هل ترغبون في أن يحكمكم فيصل؟» فأجاب على هذا السؤال ٩٦,٦٪ من الناخبين بالايجاب. وقد شهدت زوجتي كيف تُوّج فيصل ملكاً على العراق في ٢١ آب[١] ١٩٢١ أثناء ما كنت أتمتع بإجازتي في إيران.

---

(١) الصحيح هو أن تتويج الأمير فيصل تم في ٢٣ آب وليس في ٢١ منه.

فهرس المحتويات